

١
تاريخ المصريين

مصطفى كامل

في محاكمة التاريخ

د. عبد العظيم رمضان

الطبعة الثانية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

96

مصطفى كامل في محكمة التاريخ

بقلم
الدكتور عبد العظيم رمضان

الطبعة الثانية-



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

الاخراج الفنى : محمد قطب

الغلاف : اسامه سعيد

« تاريخ المصريين »

التاريخ هو الذى يصنع الضمير الوطنى والقومى للأمة ،
ولذلك درجت الأمم على العناية بتاريخها ، والتنقيب فيه ، واجلاء
ما غمض منه ، لكى تتعرف على ذاتها ، وتستكشف شخصيتها ،
وتعرف ما أسهمت به فى الحضارة البشرية ، وتبين حجمها بين
الأمم .

والتاريخ هو ذاكرة البشرية ، وهو وسيلتها لفهم الحاضر ،
والاستعداد للمستقبل . وشعب بلا تاريخ هو كإنسان بلا ذاكرة ،
لا يستطيع ممارسة خبراته ، أو التعرف على قدراته ،
أو مواجهة حاضره ، أو التعامل مع مستقبله . ومن هنا فمعرفة
التاريخ شرط لفهم الحاضر وبناء المستقبل .

ولقد بدأ وعى الشعب المصرى على « المصرية » - أو على
« القومية المصرية » بالمعنى الحديث - بسبب الظروف الطبيعية
لمصر ، التى أنشأت مجتمعا زراعيا على ضفتى النيل ، تجمعه
فائدة مشتركة فى إقامة حكومة مركزية ، وتكوين كيان موحد
ينظم الاستفادة من حياة النهر ، ويدرا به خطر فيضانه . وقد ظل

هذا الكيان الموحد قائما منذ القدم ، وعبر مختلف العصور
وتعاقب الغزاة والعهود ، فتكوت مقومات القومية المصرية منذ
القدم ، لتسبق مقومات أية قومية أخرى عبر التاريخ .

وعندما فتح العرب مصر ، لم يعتبر المصريون هذا الفتح
عربيا ، بل فتحا اسلاميا بالدرجة الأولى ، وقد ساعد اختفاء
السيادة العربية وانتقالها الى أيدي العناصر التركية والمملوكية
والعثمانية على تأصيل الفكرة الاسلامية - أو فكرة « الجامعة
الاسلامية » بالمعنى الحديث - لدى المصريين ، خصوصا بعد أن
فقدت لفظة « عربى » مدلولها الذى انتشر فى العصر الأموى ،
ورجعت الى معناها القديم الذى يلتصق بالبادية .

وعندما سنحت الفرصة « للعربية » - أو الشعور القومى
العربى - بالدخول الى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر ، حال
دون ذلك النمو التاريخى المستقل لمصر منذ بداية القرن
التاسع عشر ، ونمو الشعور القومى المصرى مع انتشار مبادئ
الثورة الفرنسية والثقافة الغربية ، ثم وقوع مصر تحت الاحتلال
البريطانى ، الذى أجبر الحركة الوطنية المصرية على الاعتماد
على السيادة التركية لأكراه انجلترا على الجلاء عن مصر ، فى
الوقت الذى كانت الشعوب العربية تتبلبل فيه تحت وطأة
الحكم العثمانى وسوء الادارة العثمانية ، مما أوجد تناقضا
عارضيا بين الحركة الوطنية المصرية والحركة القومية العربية .

وقد زال هذا التناقض تدريجيا بعد الحرب العالمية الأولى ، وحلت محله « جامعة الدول العربية » ، التي تأسست في أواخر الحرب العالمية الثانية . وتعرض الشعور القومي العربى فى مصر للتجربة مع نشأة القضية الفلسطينية ، وقيام دولة اسرائيل ، ودخول مصر حرب فلسطين - أو الحرب العربية الاسرائيلية الأولى - سنة ١٩٤٨ . ثم أصبحت مصر زعيمة حركة القومية العربية فى عهد ثورة ٢٣ يوليو ، واندمج الشعور القومي المصرى مع الشعور القومي العربى فى شخص عبد الناصر ، الذى أصبح رمز الفكرة القومية العربية ، ولم يعد أى مصرى يحس بتناقض بين شعوره القومي المصرى وشعوره القومي العربى .

وجاءت حرب يونية ١٩٦٧ نقطة تحول فى تاريخ حركة القومية العربية ، لأن نصرا تحققه الدول العربية فى ذلك الحين كان زعيما بأن يوحد الأمة العربية تحت لواء القومية العربية من الخليج الى المحيط ، ولكن الهزيمة الساحقة جاءت لتهدم معها كل ما شيدته حركة القومية العربية فى العقود السابقة ، وتراجع الشعور القومي العربى ، حتى انه عندما أطلقت مصر الطلقة الأولى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ لم يكن يعلم بهذا العزم غير دولة عربية واحدة هى سوريا ، التى اشتركت معها فى المعركة .

وقد أعاد نصر العبور الشعور القومي العربى من جديد ، وبلغ قمته فى قرار الدول العربية المصدرة للبترول استخدام

سلاح البترول في المعركة ، الذي جاء - لسوء حظ الأمة العربية متأخرا - لأن الدائرة كانت قد أخذت تدور على الجيوش المصرية والسورية .

وقد أفلح السادات في الخروج بجيشه سليما من المعركة بقرار قبول وقف إطلاق النار ، ولكنه جرح الشعور القومي العربي على مستوى العالم العربي ، بسبب الموقف المزايد لسوريا ، التي رفضت القرار في البداية ، وقبلته بعدها مرغمة ، بعد أن أدانت موقف مصر ! وبسبب ردود الفعل العربية من مفاوضات الكيلو ١٠١ واتفاقتي فض الاشتباك الأول والثاني ، وظهور ما عرف باسم « جبهة الرفض العربية » ، وبلوغ الانشقاق ذروته بمبادرة القدس في نوفمبر ١٩٧٧ ، وما تلاها من اتفاقتي كامب ديفيد والمعاهدة المصرية الاسرائيلية ، واتخاذ الدول العربية قرارا بطرد مصر من جامعة الدول العربية ، ونقل مقر الجامعة من القاهرة الى تونس .

وبذلك تمزق الشعور القومي العربي شذرا مذرا ، في الوقت الذي كانت تتردى فيه الأوضاع العربية بالحرب الأهلية اللبنانية ، والغزو الاسرائيلي للبنان ، والحرب الأهلية الفلسطينية ، والحرب الإيرانية العراقية ، التي اتخذت فيها كل من ليبيا وسوريا موقف التأيد لايران القابضة ضد العراق العربية ، واستتياب أقدام اسرائيل في الأراضي الفلسطينية

والجولان - مما مكن للشعور الاقليمى فى كل بلد عربى على حساب الشعور القومى العربى العام .

وفى مصر ، وبسبب ظروفها الخاصة فى تزعم حركة القومية العربية ، وتدهور أوضاعها الاقتصادية بعد حرب أكتوبر بسبب أعباء الحرب وما سبقها من استعدادات - فقد الشعور الوطنى المصرى قوته الدافعة التى كانت له قبل غلبة الشعور القومى العربى فى عهد عبد الناصر ، مما أفقد الشخصية المصرية كثيرا من خصائصها النشطة التى كان لها دورها الخلاق فى حقل التنمية الاقتصادية قبل الثورة فى عصر القومية المصرية ، أو بعد الثورة فى عصر اندماج القومية المصرية فى القومية العربية .

من أجل ذلك علت بعض الصيحات لأحياء الوطنية المصرية، وتعميق الشعور الوطنى المصرى ، واستعادة خصائص الشخصية المصرية ، وبعث العزة الوطنية ، والاعتزاز بمصر فى النفوس ، فى إطار الشعور القومى العربى الحديث ، والشعور الاسلامى القديم . ولم يكن ذلك ليتحقق إلا من خلال شحذ ذاكرة الشعب المصرى التاريخية ، وإعادة اهتمامه بتاريخه . وقد جرت فى ذلك محاولتان ، الأولى فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، والثانية فى مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، الذى يرأسه الأستاذ السيد ياسين ، لإصدار عمل علمى يجمع تاريخ مصر على مر العصور على نسق كتاب « المجلد فى التاريخ

المصرى « الذى صدر فى عام ١٩٤٢ ، والذى شاركت فى تأليفه
هيئة من أساتذة التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة . ولكن
هاتين المحاولتين لم يقدر لهما التنفيذ حتى الآن .

ومن هنا تأتى أهمية مشروع هذه السلسلة من الكتب فى
« تاريخ المصريين » الذى حملنى مسئوليته الدكتور سمير سرحان،
رئيس هيئة الكتاب ، فى فبراير الماضى ، لتعريف الشعب
المصرى ، والشباب خاصة ، بتاريخه بأسلوب علمى سلس ،
وبسعر للكتاب يكون فى متناول كل فرد . وقد رحبت بالفكرة ،
التي رأيت أن تمتد لتشمل تاريخ مصر كله ، القديم والاسلامى
والحديث والمعاصر ، وكلفت عددا كبيرا من المؤرخين والباحثين
والمختصين فى التاريخ بالمساهمة فى هذا العمل الوطنى القومى
الكبير . وقد أبت ثقة الدكتور سمير سرحان بى وحسن ظنه
بأعمالى العلمية الا أن أبدأ هذه السلسلة بعمل تاريخى من تأليفى،
واتقنا على أن يكون هذا العمل هو : « مصطفى كامل فى
محكمة التاريخ » ، الذى أشرف بتقديمه .

وأملى أن يلقى هذا المشروع الوطنى والقومى الكبير
ما هو جدير به من الترحيب والتقدير .

مصر الجديدة فى أول يناير ١٩٨٧

أ.د. عبد العظيم رمضان

تقديم الكتاب

تأثرت نظرة الشعب المصرى لمصطفى كامل
بمدرسة الحزب الوطنى فى كتابة التاريخ ، وهى التى
كان يمثلها المؤرخ الكبير الأستاذ عبد الرحمن الرافعى،
الذى كتب سلسلته المعروفة والقيمة فى تاريخ الحركة
القومية والوطنية المصرية . ولما كانت مدرسة
الحزب الوطنى فى كتابة التاريخ هى مدرسة سياسية
وليست مدرسة تاريخية ، فقد ترتب على ذلك
اصطباغ نظرة المصريين الى تاريخهم الحديث والمعاصر
بصبغة الحزب الوطنى السياسية ، وهى صبغة منحازة
بالضرورة تعمل باستمرار على تبرير اخطاء الحزب
الوطنى كلما وجدت الى ذلك سبيلا ، وتصور زعماءه
فى حالة من البطولة الفذة المجردة من الاخطاء البشرية .
وقد ساعد على نشر وجهة نظر الحزب الوطنى فى
تاريخ مصر ما تمتع به المرحوم الأستاذ عبد الرحمن
الرافعى من شهرة قبل الثورة ، ثم - بعد الثورة -
بنى ثورة يوليو لنظرة الحزب الوطنى لتاريخ مصر
المعاصر ، والمعادية لحزب الوفد ، بعد اصطدامها به
على السلطة والحكم وعملها على تصفيته ، خصوصا
بعد ان لعب الأستاذ فتحى رضىوان، قطب الحزب

الوطني دورا أساسيا في هذا الصدد ، بعد أن اختير
وزيرا للإرشاد القومي على مدى سنوات .

على أنه لما كانت المدرسة التاريخية الحديثة
تنظر إلى البطولة الشعبية في صورتها الانسانية ، وفي
إطار التحامها بالشعب صانع البطولات ، وتعمل على
تجريبها مع حالات البطولة الإلهية المنفصلة عن الواقع،
وتعتمد بصورة أساسية على الوثيقة التاريخية المجردة
التي هي سيدة الأدلة - فمن هنا كانت هذه الدراسة
عن مصطفى كامل في محكمة التاريخ ، التي تضع
البطل في إطاره التاريخي الطبيعي ، الذي يستند إلى
العلم لا السياسة . وتعيد إلى التاريخ هيئته ووقاره
كعلم من أهم العلوم الانسانية ، وليس كأداة في يد
الممارس السياسية المختلفة تشكله وتصيب أحداثه
كما تشاء .

مصر الجديدة في أول يناير ١٩٨٧

د. عبد العظيم رمضان

في بيت بحى الصليبة بالقاهرة ، ولد مصطفى كامل في
٤ أغسطس ١٨٧٤ ومصر حبلى بالثورة ضد الوصاية الأجنبية ،
التي كانت في ذلك الحين تدفع برءوس أموالها ، ومن ورائها
تفوذها السياسى ، لاختضاع مصر للسيطرة الاستعمارية .

وعندما بلغ الخامسة من عمره ، كانت مصر تشهد أعظم
حركة دستورية في تاريخها الطويل ، بقيادة الزعماء الدستوريين
وعلى رأسهم محمد شريف باشا . وفي يونيو ١٨٧٩ كانت الوصاية
الأجنبية تستعرض عضلاتها بخلع الخديو اسماعيل ، الذى أراد
المقاومة ، وجاء ابنه توفيق الى العرش وهو يعنى دوس خلع والده
على يد الاستعمار .

وعندما بلغ مصطفى كامل سن السابعة من عمره ، سمع
بمظاهرة عابدين ، التى هزت أرجاء مصر في ٩ سبتمبر ١٨٨١ ،
عندما وقف عرابى باسم الأمة المصرية يتحدى الخديو توفيق ،
ويطالبه بالحكم الدستورى .

وفي الثامنة ، شهد مصطفى كامل الثورة تندلع في البلاد ،
وتقع السلطة في يد الثوار ، ثم تنتهي نهاية حزينة بمدافع الأسطول
البريطاني وهي تقذف طوابي الاسكندرية يوم ١١ يولية ١٨٨٢ •
ثم يشهد الأيام الأولى السوداء للاحتلال بعد استسلام عرابي
والقادة العرابيين ومحاكمتهم •

وفي العاشرة من عمره ، شهد مصطفى كامل شريف باشا
وهو يستقيل استقالة مسببة مدوية في ٧ يناير ١٨٨٤ ، احتجاجا
على تدخل انجلترا ومطالبتها له باخلاء السودان ، وقال كلمته
المأثورة : « اذا تركنا السودان ، فالسودان لن يتركنا » ! •

وقد رسخت هذه الأحداث الجسام في ذهن الصبي
مصطفى كامل ، وعبأت صدره ضد الاحتلال الانجليزي ، أي ضد
بريطانيا بالذات •

ولاشك أن نشأة مصطفى كامل كان لها تأثير هام • فهو
من أسرة عسكرية ، اذ كان والده على أفندي محمد ضابطا
مهندسا في سلاح الطبوجية (المدفعية) ثم في بلوكات المهندسين ،
ووصل الى رتبة اليوزباشى وقومندانا في عهد عباس الأول ، ثم
عين في عهد سعيد باشا ضمن أركان حرب معيته ، وأحيل الى
الاستيداع في عهد اسماعيل ، ثم عين مهندسا ملكيا حتى
عام ١٨٧٧ ، حيث أحيل الى المعاش •

وفي الوقت نفسه ، كانت والدته مصطفى كامل كريمة لضابط عسكري أيضا ، هو اليوزباشي محمد أفندي فهمي . وقد تشربت في بيت والدها بالروح الوطنية العسكرية المصرية ، ونقلتها الى مصطفى كامل في الشكل الذي أجج شعوره الوطني .

وعلى هذا النحو لم يكن مصطفى كامل كأي فرد من أقرانه، اذ تشرب من صغرة الروح الوطنية بتركيز أكبر ، وكان على وعي أكبر بالكرامة والحرية والشجاعة ، مما دفعه الى رفض الظلم في السادسة من عمره على يد مدرسه ، عندما أهانه ، وعاقبه بالحبس لمدة ساعتين ، لأنه أجاب على سؤال وجه الى زميل له لم يرد عليه . فطلب الى والده أن يلحقه بمدرسة أخرى غير مدرسة « والدته عباس الأول » الابتدائية بالصليبية ، فنقله الى مدرسة السيدة زينب الابتدائية التابعة لوزارة الأوقاف .

وفي عام ١٨٨٦ توفي والد مصطفى كامل وهو في الثانية عشرة من عمره ، فأصيب بصدمة شديدة ، وكفله من بعده أخوه الأكبر حسين بك واصف (حسين باشا واصف وزير الاشغال فيما بعد) ، فنقله الى مدرسة « القرية » قريبا من منزل جده لأمه ، الذي أقام فيه وأخوته .

وفي عام ١٨٨٧ حصل مصطفى كامل على شهادة الابتدائية ، وعمره ثلاثة عشر عاما . وكان الحصول على هذه الشهادة

فى ذلك الزمن ، الذى تقل فيه نسبة المتعلمين فى مصر الى أدنى حد ، عملا هاما ، الى انحد الذى كانت تعد له الاحتفالات ! - كما يحدث فى وقتنا الحاضر بالنسبة للحاصلين على درجتى الماجستير والدكتوراه ! - ولذلك فقد أقيم احتفال فخم لتسليم شهادات الابتدائية ، حضره خديو مصر بنفسه ! ، وهو الخديو توفيق سنة ١٨٨٧ ، وتسلم فيه الصبى مصطفى كامل شهادته .

وسرعان ما دخل المدرسة التجهيزية (الثانوية) ليواصل دراسته فى المرحلة الثانوية . وهى مرحلة كانت تتيح لأصحابها فى ذلك الحين التمتع برعاية وزير المعارف نفسه ! .

ولهذا السبب لا نعجب كثيرا اذا عرفنا أن مصطفى كامل فى هذه المرحلة كان على اتصال بعلى مبارك باشا وزير المعارف ، وكان هذا يدعو به الى بيته ويقدمه الى زواره من العظماء والكبراء والعلماء ! .

وقد حدث أن رسب فى مادة من المواد هو وكثير من زملائه ، بسبب نظام الامتحان ، فانطلق بنفسه الى منزل الوزير يشكو اليه سوء هذا النظام ، ويطلب تعديله ! ، وكان يجادل الوزير بجرأة وشجاعة ! .

وقد أشار الى ذلك الشيخ على يوسف ، صاحب جريدة

المؤيد ، بقوله : « دخلت ذات ليلة على علي مبارك باشا في منزله ، في أوائل سنة ١٨٩٠ ، وهو يومئذ ناظر المعارف ، ومجلسه حافل بالفضلاء والأدباء ، وإذا بمصطفى كامل ، وكان يومئذ تلميذا بالمدرسة الثانوية ، يجادل الباشا في أمره ، ويقول : « انتى لا أطلب منك الا ما وجدت أنت من مثلك يوم كنت تلميذا مثلى ! » وما يدريك ألا آكون عظيما أخدم وطنى غدا بأكثر مما تخدمه أنت اليوم ؟ » وبعد ما خرج ، ابتسم الباشا وقال : انتى أعجب كثيرا بشجاعة هذا التلميذ ، ويلذ لى أن يتكلم أمامى كثيرا بمثل هذه الشجاعة النفسية » .

ثم قال الشيخ على يوسف : « من تلك اللحظة عرفت مصطفى كامل ، وكأننا عرفت رجلا لا تلميذا في المدرسة » ! .

وفي نفس العام ١٨٩٠ أسس مصطفى كامل « جمعية الصليبية الأدبية » ، ليفرغ فيها شحته من الخطابة والكتابة ، ويقف مساء كل جمعة بين زملائه يرتجل ما تمليه قريحته ! .

ومن الطريف أنه كان يتردد في نفس الوقت على جمعية أخرى تسمى « جمعية الاعتدال » ، كانت تعقد جلساتها الأسبوعية بمدرسة الأمريكان ، ليتعرف على من فيها من الأدباء ! .

وهكذا كانت حياة مصطفى كامل في المرحلة الثانوية ، حافلة بالنشاط العلمى والثقافى ، كما كانت خصبة بالتعرف على

كبار رجالات بلده ، وهو أمر لا يتوفر لطالب المرحلة الثانوية ، بل ولا الجامعية في وقتنا الحاضر ! • وكل ذلك أنمى شخصيته ، ومنحها أبعادا هيأته لدوره الوطنى الذى لعبه فى تاريخ مصر •

وتشير الدلائل الى أن مصطفى كامل كان يدرك بغريزته وشعوره الباطن أن حياته جد قصيرة ، فأراد أن يعيشها بالعرض لا بالطول ! وهو ما فعله تماما حتى ليتمكن القول أنه اذا كان قد مات وعمره أربعة وثلاثين عاما ، الا أنه عاش ضعف عمره على الأقل ! ، وقدم لبلاده ما لا يقدم فى ضعف هذا العمر ! •

فلم يكد يتم دراسته الثانوية سنة ١٨٩١ حتى عزم على الالتحاق بمدرسة الحقوق الخديوية • ولم يكن هذا الاختيار عشوائيا ، وانما كان لهدف عظيم ، هو اعداد نفسه للدفاع عن قضية بلاده • وهو ما أفصح عنه حين وصف مدرسة الحقوق بأنها « مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأمم والأفراد » • وقد كتب الى أخيه على فهمى ، الذى كان وقتذاك ضابطا فى السودان ، يشرح أسباب اختياره مدرسة الحقوق ، فى خطاب مؤرخ فى ١٢ يولية ١٨٩١ ، يقول فيه :

« العقبة الكئود التى أمامى ، وهى شهادة الدراسة الثانوية ، قد زالت • فقد نلتها بعد أن أضنت جسمى ، فأصبح نحىلا ، لا صحيحا ولا عيلا - ولكنى أؤمل أن تعود الى القوى لأدخل مدرسة الحقوق الخديوية • فقد عزمت على الانضمام الى صفوف

طلابها ، لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد
والأمم • وأنت تعلم أنى أميل إليها كثيرا » • ثم ينهى الى أخيه
عزمه على تأليف جمعية باسم « احياء الوطن » ! •

وقد التحق مصطفى كامل بالفعل بمدرسة الحقوق في
أكتوبر ١٨٩١ ، وهو فى السابعة عشرة من عمره • ولكن رغبته
الداخلية فى مضاعفة حياته ، دفعته الى الالتحاق ، فى العام
التالى مباشرة ، أى فى أكتوبر ١٨٩٢ - بمدرسة الحقوق
الفرنسية ، رغم نجاحه فى امتحان السنة الأولى ، ليجمع بين
المدرستين ، ويضاعف دراسته القانونية ! • وهو جهد جبار ،
لأن مصطفى كامل لم يكن يتقن اللغة الفرنسية ، بل كان ضعيفا
فيها ، باعترافه لأخيه على فهمى فى خطابه السالف الذكر - وكان
عليه لذلك ، أن يدرس أيضا اللغة الفرنسية ليحيد الكتابة
والخطابة بها ، بالإضافة الى دراساته القانونية • فكان يقضى
النهار فى مدرسة الحقوق الخديوية ، ويقضى المساء فى مدرسة
الحقوق الفرنسية • ومع ذلك فقد حصل على شهادة الحقوق
من جامعة تولوز فى نوفمبر ١٨٩٤ ، أى بعد عامين اثنين ! •

والأمر المذهل أن هذه السنوات الثلاث التى قضاها
مصطفى كامل فى مدرستى الحقوق الخديوية والحقوق الفرنسية
- أى من أكتوبر ١٨٩١ الى نوفمبر ١٨٩٤ - لم تكن سنوات
دراسة علمية فقط ، بل انه وفعت فى خلال هذه السنوات الثلاث

أعظم الأحداث التي كونت حياة مصطفى كامل السياسية وتتمثل
في ثلاثة لقاءات تاريخية :

أولها — لقاء مصطفى كامل بعبد الله النديم ، خطيب الثورة
العراقية المشهور •

والثاني — لقاء مصطفى كامل بالخدّيو عباس الثاني •

والثالث — لقاء مصطفى كامل بأوروبا واحتكاكه لأول مرة
بالحضارة الغربية ! •

وبالنسبة للقاء مصطفى كامل بعبد الله النديم ، فمن المعروف
أن النديم كان قد صدر أمر بالقبض عليه في أعقاب الاحتلال
كغيره من زعماء الثورة العراقية ، ولكنه استطاع الهرب داخل
البلاد • ورغم تخصيص مكافأة قدرها ألف جنيه للقبض عليه ،
وتهديد الحكومة لكل من يأويه بالاعدام ، إلا أن النديم تمكن
من الاختفاء لمدة زادت على تسع سنوات ، بمساعدة الأهلين ! ،
حتى توفي الخدّيو توفيق في ٧ يناير ١٨٩٢ ، وتولى عباس حلمي
الخدّوية خلفا له ، وأصدرت وزارة الداخلية عفوا عن
عبد الله النديم ، وسمح له بالعودة الى القاهرة •

وقد سارع مصطفى كامل الى لقاء النديم عندما علم
بظهوره في القاهرة ، وقدم نفسه اليه كطالب من طلبة الحقوق ،

فرحب به ، ونشأت بين الفتى والنديم صلة كان لها تأثيرها البالغ في مصطفى كامل من ناحيتين :

الناحية الأولى ، اتجاه مصطفى كامل الى العمل الصحفي ، بعد أن شرح له النديم أهمية الصحافة ودورها في تنوير وتكوين الرأي العام • خصوصاً بعد أن افتتح النديم نضاله في أعقاب عودته الى القاهرة باصدار مجلة باسم « الأستاذ » ، صدر العدد الأول منها في ٢٣ أغسطس ١٨٩٢ •

فبعد صدور مجلة « الأستاذ » بستة أشهر ، أى في ١٨ فبراير ١٨٩٣ ، أصدر مصطفى كامل العدد الأول من مجلة شهرية باسم « المدرسة » ، كمجلة « وطنية أدبية تهذيبية علمية » تصدر في غرة كل شهر عربى • وجعل شعارها المطبوع في صدر كل عدد « حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك » ! • وجعل نفسه مديرها ومحررها ! • وقد نوه النديم بها عند صدورها في مجلة « الأستاذ » ، تشجيعاً لمصطفى كامل ! •

ولم يخف مصطفى كامل في العدد الأول من مجلة « المدرسة » تأثيره بعهد الله النديم ومجلة « الأستاذ » ، فقد كتب يقول انه أنشأ هذه الجريدة « لتكوين مركزاً لجمع درر فرائد « الأستاذ » ! - الأمر الذى يوضح مدى اعتماد مجلة « المدرسة » على مجلة « الأستاذ » ! •

كما اتبع مصطفى كامل في مجلة « المدرسة » نفس أسلوب عبد الله النديم ، وهو أسلوب المحاورات • فكما كتب عبد الله النديم في أولى أعداد « الأستاذ » حوارا بين النديم وشخص يسمى حبيب ، عن فضل اللغة العربية وأهميتها — كذلك كتب مصطفى كامل في مجلة « المدرسة » « محاوراة بين الأستاذ والتلميذ » ، « محاوراة بين صديقين » — وهكذا ! •

وكما كتب النديم عن أهمية تعليم أبناء الشعب ، وضرورة تعميم التعليم ، كذلك كتب مصطفى كامل عن أهمية تعميم التعليم بقوله : « ان تعميم التعليم من أهم الأسباب الداعية لنمو العمران » •

كذلك حين كتب عبد الله النديم يدافع عن الفلاح المصرى ويصفه بالذكاء والنباهة ؛ فعل مصطفى كامل المثل ، فروى قصة مبالغ فيها عن تلميذ يبلغ من العمر عشر سنوات قادم من الصعيد ، استطاع أن يحل مسألة رياضية عجز مصطفى كامل وزملاؤه عن حلها ! ، مما دعا أكبرهم الى مخاطبة التلميذ قائلا : « أيها الفلاح ، أنت مثلنا متمدين » ! •

كما طالب مصطفى كامل الحكومة المصرية — « ان كانت حكومة أهلية » ! (أى وطنية) — أن تبذل كل جهدها فى نجاح حال الفلاح ومساعدته •

وكما تحدث النديم عن آداب الصوم وأحكامه في شهر رمضان ، كذلك فعل مصطفى كامل في العدد الثاني من مجلة المدرسة الصادرة في ١٩ مارس ١٨٩٣ . كذلك عندما دافع عبد الله النديم عن سياسة الحجاب ، ودعا الى اتباعه لأنه « من قواعد الشرع والأدب » - هذا مصطفى كامل حذوه ، فكتب يقول : ان قواعد الشرع والأدب تقضى بضرب الحجاب على النساء ، فليس لهن أن يستخدمن بالمصالح كالرجال ، وانما يكفي أنهن يدبرن شئون المنزل ويهذبن أولادهن ! •

وقد كان من الطبيعي أن يتأثر مصطفى كامل بعبد الله النديم - الذى كان خطيب الثورة العراقية الأكبر - في حياته الخطائية • فقد لاحظ بعض الباحثين انه على الرغم من أن مصطفى كامل قد تميز عن أستاذه بالمآمه باللغة الفرنسية ومعرفته لآراء الغربيين ، الا أنه استخدم نفس الأسلوب المؤثر على المستمعين • فقد كان النديم ذا فصاحة وبيان ، وصوت جهورى ، وحجج قوية ، وجراءة فائقة في مواجهة الجماهير - وكذلك كان مصطفى كامل ! • وكما ظهرت خطورة خطب النديم خلال الثورة العراقية ، كذلك ظهرت خطورة خطب مصطفى في فترة نضاله لبعث الروح الوطنية التى خمدت في كثير من النفوس •

هذا على كل حال هو الجانب الأول من تأثير مصطفى كامل

بعبد الله النديم • أما الجانب الثانى فلا يقل خطورة ، فقد عرف مصطفى كامل من عبد الله النديم أسرار الثورة العرابية ، وأسباب فشلها ، ولذلك فقد تحاشى الزج بالجيش فى حركته السياسية ، حتى لا يستفز الاحتلال الى التدخل ، كما حدث فى الثورة العرابية ، رغم أن الخديو عباس حلمى حاول الاستعانة بالجيش فى حادثة الحدود المشهورة سنة ١٨٩٤ • وقد كان فشل الخديو عباس فى هذه المحاولة ، من الأسباب التى عززت سياسة مصطفى كامل فى عدم الاستعانة بالجيش •

ففى ٢٤ يونية سنة ١٨٩٥ - أى بعد عشرين يوما من تقديم مصطفى كامل لوحة سياسية مشهورة الى مجلس نواب فرنسا تصور مصر راسفة فى الاغلال ، ويطلب فيها مساعدة مصر - تملك الحماس رجال الجيش المصرى بسواكن فى السودان ، فكتب اليه واحد وثلاثون منهم رسالة قالوا فيها :

« ان الذين يخاطبونك ، يجدون أنفسهم أمام وطنيتك النادرة ، وتفانيك فى حب مصر المقدسة - صفارا ! • لأن قلبك الحق أمضى من سيوفنا ، وحججك القوية أفعل من رصاصنا • فاقبل شكرنا ، واعلم أن أرواحنا طوع اشارتك فى خدمة بلادنا العزيزة » •

وقد رد مصطفى كامل على هذه الرسالة ينصح بعدم

تدخل الضباط فى السياسة ، ويقول : « من الحكمة ألا نمكن العدو من رقابنا • وانى لا أود أن يدخل الضباط فى حركتنا السياسية دخولا ظاهرا ، لأن هذا يضر بالمسألة المصرية ضررا بليغا ، حيث يجد الاحتلال مسوغا لخلق التهم الثورية بمصر ، وغير ذلك مما لا يخفى عليكم » ! •

كذلك تحاشى مصطفى كامل وقوع تناقض بين الحركة الوطنية ، والخديو عباس ، حتى لا يعرض حركته للمصير الذى انتهت إليه الثورة العراقية بعد صدامها بالخديو توفيق ، حين لعبت الدسائس الانجليزية دورها فى اللعب على حبل هذا الصدام وتوسيع شقة الانقسام •

وقد ساعدت الظروف مصطفى كامل على أن يسلك هذه الخطة ، بسبب العلاقة الخاصة التى ربطته بالخديو عباس حلمى ، والتى تعد من أعظم العوامل التى كونت حياة مصطفى كامل السياسية فى فترة دراسته بمدرسة الحقوق •

وكان الخديو عباس حلمى قد تولى الخديوية يوم ٨ يناير ١٨٩٢ ، وهو اليوم التالى لوفاة والده الخديو توفيق ، وقد وصل من فينا الى القاهرة يوم ١٦ يناير ١٨٩٢ • ولما كانت مصر تابعة لتركيا فى ذلك الحين ، فكان من الضرورى صدور فرمان من السلطان العثمانى بإسناد الخديوية اليه ، وقد صدر

هذا الفرمان في ٢٦ مارس ١٨٩٢ ، وهو يقطع من الأراضي المصرية شبه جزيرة سيناء بما في ذلك العقبة ! ، مما أثار الخديو ، وأثار اعتراض الحكومة الانجليزية التي كانت تحتل مصر بجيوشها ، فتدخلت لدى الحكومة العثمانية ، وأفلحت في استصدار « ارادة سنية » بإسناد ادارة شبه جزيرة سيناء الى الخديو كما كانت لأسلافه ، في ٨ أبريل ١٨٩٢ •

لهذا السبب كانت العلاقة بين الخديو عباس حلمي والانجليز علاقة ودية في العام الأول من حكمه ، وهو عام ١٨٩٢ ، اذ كان الخديو في حاجة لتأييد الانجليز له في مسألة حدود مصر ، كما أن اللورد كرومر ، ممثل بريطانيا في مصر أرساه بعدم تعيين مجلس وصاية عليه لعدم بلوغه سن الرشيد بالسنتين الميلادية •

على أنه منذ أواخر عام ١٨٩٢ أخذت تتجمع العوامل التي حملت عباس حلمي على تغيير سياسته تجاه الانجليز ، من سياسة ود ومصالحة الى سياسة خصومة وعداء • ففي ذلك الحين كان عباس حلمي يحس بأنه أمير دمية ! ، وأن سلطته سلطة شكلية ، وأن السلطة الفعلية في يد الانجليز • وكان رئيس وزرائه مصطفى فهمي باشا يتعامل مع اللورد كرومر على أساس أنه ممثل السلطة الفعلية التي تستطيع فرض ارادتها على البلاد بحكم وجود جيش الاحتلال — مما دعا الخديو عباس حلمي

الى اقالته في ١٥ يناير ١٨٩٣ • على أن اللورد كرومر لم يلبث أن تدخل سريعا ، فأبلغ عباس حلمي اعتراض الحكومة البريطانية على الاجراء الذي اتخذه ، وهدده بأنه اذا قاوم ارادته فسوف يجازف بسلطته وبشخصه ! • ثم سويت الأزمة بتعيين رياض باشا رئيسا للوزراء •

كان بسبب هذه الحادثة أن انقلب الخديو عباس حلمي الثاني على الانجليز • وكما فعل جده اسماعيل من الاستعانة بالقوى الوطنية ، فكذلك فعل عباس حلمي • ولكن نظرا لتغير الظروف ، وعدم وجود حزب وطني قوى – كما كان الحال في عهد اسماعيل – فقد عمد عباس الى الاستعانة سرا ببعض العناصر الوطنية القريبة الصلة في القصر ، وفي الخارج ببعض الشباب الذي يتوسم فيه القدرة على العمل السياسي • وفي هذه الظروف لعبت الصدفة دورها في تعرفه على مصطفى كامل •

ففي نوفمبر ١٨٩٢ – أي قبل أزمة اقالة مصطفى فهمي باشا بشهرين – زار الخديو عباس حلمي مدرسة الحقوق الخديوية ، فكان مصطفى كامل على رأس الطلبة الذين رحبوا به ، وألقى بين يديه قصيدة مطلعها :

بشرى الحقوق بسيد الأمراء
كنز العلا ، عباس ذو النعماء

شراك يادار العدالة والهدى

بملك مصر وأوحد العظماء

وقد كان فى أعقاب هذه الزيارة أن تم الاتصال بين عباس حلمى ومصطفى كامل ، عن طريق حسن باشا عاصم ، رئيس ديوان الخديو ، وعبد الرحيم أحمد وكيل الادارة العريية بالمعية السنية ، لتنسيق العمل الوطنى . ولم يكذ يمشى شهر ونصف بعد الزيارة ، حتى كان مصطفى كامل يدعو رفاقه طلبة مدرسة الحقوق الى الاحتفال بعيد جلوس الخديو فى حديقة الأزبكية يوم ٨ يناير ١٨٩٣ ، ولم يكن مثل هذا الاحتفال معروفا من قبل ! •

وبعد عشرة أيام من هذا الاحتفال ، وبمناسبة الصدام بين الخديو عباس حلمى واللورد كرومر على اقالة مصطفى فهمى باشا ، نظم مصطفى كامل مظاهرة من طلبة الحقوق لتأييد الخديو ، توجهت الى عابدين مع وفود الأمة التى توجهت لهذا الغرض ! •

وأهمية هذه المظاهرة التى نظمها مصطفى كامل ، أنها تمثل بداية اشتراك الطلبة فى الحركة الوطنية بصفة فعالة ضد الاحتلال ، وهى سمة سوف تميز فيما بعد نضال مصطفى كامل والحزب الوطنى وتمعد لاشتراك الطلبة فى ثورة ١٩١٩ •

على كل حال ، اذا كان لقاء مصطفى كامل بالخديو عباس
الثانى يعد أخطر الأحداث فى حياته السياسية فى فترة دراسته
للحقوق ، فان لقاءه بأوروبا لا يقل خطورة ، ليس فقط لما
ترتب على هذا اللقاء من تأثير فى تكوين مصطفى كامل الثقافى
والفكرى ، وانما لأن أوروبا كانت فى تلك الظروف التاريخية
تمثل الميدان الرئيسى لكفاح مصطفى كامل .

ففى تلك الفترة التاريخية من حياة مصر ، كانت هناك
ثلاثة عوامل تتحكم فى حرية مصر واستقلالها وتقرر مصيرها :

العامل الأول ، هو تبعيتها للدولة العثمانية ، بمعنى أن مصر
كانت تقع تحت السيادة العثمانية ، على الرغم من أن انجلترا
كانت تحتلها منذ ١١ يولية ١٨٨٢ ! . ولكن تبعية مصر للسيادة
العثمانية لم تكن مطلقة ، بل كان لها وضع خاص واستقلال
ذاتى ، حصلت عليه بمقتضى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ والقرمانات
المتركة لهذه المعاهدة ، الى جانب القرمانات التى صدرت فى عهد
الخديو اسماعيل بشأن اختصاصات ومسئوليات الخديوية .

أما العامل الثانى فهو الصفة الدولية للمسألة المصرية منذ
معاهدة لندن ١٨٤٠ . لأنه بعد هذه المعاهدة الدولية ، التى
اشتركت فى ابرامها كل الدول الكبرى فى ذلك الوقت - لم يعد
فى وسع أية دولة كبرى أن تغير وضع مصر السياسى الدولى ،

دون اتفاق مع بقية الدول التي وقعت المعاهدة • بل لا تستطيع الدولة العثمانية ذلك على الرغم من سيادتها على مصر ! •

أما العامل الثالث ، فهو الاحتلال البريطاني ، الذي مثل عند وقوعه خرقا واضحا وانتهاكا صريحا لمعاهدة لندن ١٨٤٠ ، بعد أن هيا لدولة كبرى أن تحدث تغييرا في وضع مصر السياسي الدولي دون موافقة بقية الدول الكبرى ! •

هذه العوامل الثلاثة هي التي حددت مجال العمل السياسي لمصطفى كامل ، وهو أوروبا • لأنه إذا كانت مصر قد غلبت على أمرها بالاحتلال البريطاني ، فإن المصلحة الوطنية كانت تقضى باستغلال التناقض الذي وقع بين مصالح الدول الأوروبية وبين إنجلترا التي احتلت مصر ، والاستعانة بدول أوروبا لأكراه إنجلترا على الجلاء عن مصر •

ولما كانت فرنسا هي أكبر دولة منافسة لإنجلترا في ذلك العصر ، فقد كان لهذا السبب أن اتجه مصطفى كامل الى فرنسا يعرضها باسم مصالحها ، وباسم التوازن الدولي في البحر المتوسط ، لأكراه إنجلترا عن الجلاء عن مصر ! •

وكانت الظروف قد هيات لمصطفى كامل الاحتكاك حضاريا بفرنسا عندما التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية كما ذكرنا • ذلك

أن امتحان نهاية العام في هذه المدرسة كان لابد أن يتم في فرنسا . ولهذا الغرض سافر مصطفى كامل الى فرنسا يوم ٢٣ يونية ١٨٩٣ لأداء امتحان السنة الأولى . فأتاحت له هذه الزيارة الفرصة للاحتكاك بالحضارة الأوروبية ، والاتصال بمصادر الثقافة ودور العلم ، وأتاحت له أكثر من ذلك الاختلاط بالشعوب الأوروبية وغيرها .

فيقول في خطاب لأخيه على فهمي في ٢٩ يولية ١٨٩٣ .
« لقد تعرفت هنا بطلاب روسيين وبولونيين ويابانيين ، فرأيتهم جميعا منكبين على العلم ، ولكنى أؤكد لك أن المصري أقواهم عارضة وأعلامهم ذكاء ، ولا ينقصه الا الارادة التي هي أس النجاح » .

كذلك تهيأ لمصطفى كامل الاتصال بالأساتذة والصحفيين الفرنسيين ، والدخول معهم في مناقشات حول المسألة المصرية ، مما أفاده من النواحي العلمية والسياسية .

ولم يلبث مصطفى كامل أن عاد الى فرنسا في صيف العام التالي ، سنة ١٨٩٤ ، ليؤدي امتحان السنة الثانية بنجاح ، واتهز الفرصة لزيارة بروكسل ، ثم عاد الى مصر في سبتمبر من نفس السنة .

عاد مصطفى كامل الى مصر وهو يعتزم العودة الى باريس في الشهر التالي مباشرة ليؤدي امتحان السنة الثالثة ، ويحصل

على الليسانس في نوفمبر من نفس العام ، أى ليؤدى امتحانين في عام واحد ! • وهو أمر غير مفهوم ، ولا يفسره الا ذلك الاحساس الخفى الذى كان يبطنه مصطفى كامل بأن عمره قصير ، وهو الذى جعله يضاعف دراسته للحقوق في مدرسة مصرية ومدرسة فرنسية معا ، فأراد أن يضاعف امتحانه في عام واحد ويجتاز عامين دراسيين في عام واحد ! •

على أنه لما كان نظام كلية الحقوق في جامعة باريس لا يسمح لمصطفى كامل بأداء امتحانين في سنة واحدة ، فلذلك تقدم بمساعدة أساتذته الفرنسيين في مصر ، الى جامعة تولوز ، التى قبلت أن يؤدى مصطفى كامل أمامها الامتحان النهائى ، فنجح فيه ، وحصل على ليسانس الحقوق في نوفمبر ١٨٩٤ وله من العمر عشرون عاما •

وقد استرعى هذا العمل اهتمام صحف تولوز ، فكتبت جريدة « دى تولوز » خبرا مطولا عنه جاء فيه : « بين الذين نجحوا في كلية الحقوق عندنا ، شاب مصرى ، هو مصطفى كامل ، ولم يكن مقيدا في الكلية عند بدء الدراسة ، بل هذه أول مرة يلتحق فيها بالكلية • ومن يعلم أنه دخل امتحان يولية الماضي في كلية الحقوق بجامعة باريس ، واجتازه بنجاح باهر - فانه يدهش كثيرا لهذا الذكاء النادر ! • ولا يسعنا الا أن نهنيء مصر به ، ونرجو له النجاح التام في العمل الذى

يريد به خدمة بلاده • وإن مدينة تولوز لتفخر بأن تسجل في
عداد خريجها شابا كهذا الشاب « ! •

على هذا النحو انتهى مصطفى كامل من دراسته القانونية
بهذا الشكل المكثف الفريد ، ليتفرغ لخدمة بلاده التي وهبها
حياته ، وهو ما عبر عنه في خطاب صريح لأخيه على فهمي في
١٨ نوفمبر ١٨٩٤ ، حيث كتب يقول : « أصبحت حاملا شهادة
الحقوق ! • ولو أتيح لى الخير ، وبلغت ما أتمنى ، كنت المدافع
عن حقوق الأمة بأسرها أمام العالم أجمع ، لأن مصر - وهى
جنة الدنيا - لا تستحق أن يداس شرفها بالأقدام ، ونصبح
فيها - نحن أبناءها الأغزاء - ممقوتين غرباء » ! •

وقد عاد مصطفى كامل الى مصر مزودا بصندوقين كبيرين
مملوءين بالكتب فى تاريخ المسألة المصرية ، وأخذ يعكف عليها
لدراستها ، كما يدرس المحامى الناجح القضية التى ينوى
الترافع فيها ! •

وكان فى ذلك الحين قد انتقل الى منزل استأجرته عائلته
خلف قسم المنشية بعمارة خليل أغا ، حيث وضع انفسه برنامجا
صارما للعمل والدراسة استعدادا لأعباء النضال فى سبيل
مصر •

وسرعان ما أخذت علاقات مصطفى كامل بالخديو عباس

الثانى تتطور فى خدمة المسألة المصرية • وقد سبق أن تحدثنا عن هذه الصلة ، التى بدأت بعد زيارة الخديو عباس لمدرسة الحقوق الخديوية فى نوفمبر ١٨٩٢ ، ورأينا نشاط مصطفى كامل فى تجنيد طلبة المدارس لتأييد الخديو فى صراعه مع اللورد كرومر • وقد أثمر هذا التعاون رعاية من جانب الخديو عباس لمصطفى كامل فى دراسته • فعندما عزم على اتمام دراسته بأوروبا ، وسافر الى تولوز ، كان ذلك بتعريض الخديو ، فقد تولى الخديو الاتفاق على مصطفى كامل ، الى جانب أخيه من أبيه الدكتور عبد الفتاح فتحى ، كما جعل له راتبا شهريا ! •

وعندما عاد مصطفى كامل الى مصر فى ٦ ديسمبر ١٨٩٤ ، وأصبح متفرغا للنضال الوطنى ، أرسل اليه الخديو عباس عبد الرحيم أحمد ، الذى يعمل فى المعية الخديوية ، للاستعداد للسفر الى فرنسا للدعاية للقضية الوطنية ! • وكان عبد الرحيم أحمد هو همزة الوصل بين الخديو عباس ومصطفى كامل • وقد جرت اللقاءات فى احدى مقاهى باب الخلق ، حيث كان عبد الرحيم أحمد يخرج من الباب الخلفى لسراى عابدين ، لتفادى جواسيس اللورد كرومر ، لمقابلة مصطفى كامل وادخاله قصر عابدين •

فى ذلك الحين كان الخديو عباس الثانى يعتمد على فرنسا لحمل انجلترا على الجلاء عن مصر • ولهذا السبب قرب اليه

مجموعة من الفرنسيين كانت تلتف حول السكرتير العام في
القصر ، وهو فرنسي يدعى لويس روييه Louis Rouiller
وتضم جافيو Gavillot زعيم الجالية الفرنسية في مصر .

وعندما خطط الخديو للدعاية للقضية الوطنية في فرنسا ،
أوكل لأحد أعضاء البرلمان الفرنسي ، وهو المسيو
« فرانسوا دي لونكيل » ، مهمة الدفاع عن القضية الوطنية
المصرية في فرنسا . وكان « دي لونكيل » قد زار مصر في
مارس ١٨٩٥ لمقابلة الخديو سرا لهذا الغرض ، وقابله مصطفى
كامل ، وألقى عدة خطب طعن فيها طعنا شديدا على السياسة
البريطانية ، لأحراج الاحتلال البريطاني ، ثم سافر قاصدا فرنسا
يوم ١٣ أبريل سنة ١٨٩٥ .

وكانت الخطة أن يسافر مصطفى كامل الى فرنسا ليلحق
بالمسيو دلونكل ، ويتعاون معه في باريس ، وهو ما حدث
بالفعل ، اذ سافر مصطفى كامل الى باريس في أوائل الشهر
التالي ، مايو ١٨٩٥ .

على أن الخلاف لم يلبث أن دب بين مصطفى كامل ، الذي
كان عمره وقتذاك لا يتجاوز واحدا وعشرين عاما ، وبين النائب
الفرنسي المحنك . ففي حين كان مصطفى كامل يرى أن يقود
هو الدفاع عن قضية بلاده ، لأن ذلك أكثر تأثيرا على الرأي

العام الفرنسي والأوروبي - كان دلونكل يتخذ من المسألة المصرية سبيلا لمجده الشخصي ! • وهكذا أخذ دلونكل يثير المتاعب في وجه مصطفى كامل ، ليس فقط في الأوساط الفرنسية ، بل في السراى فى مصر لدى الخديو عباس ! •

ومن سوء حظ مصطفى كامل أن الخديو عباس كان يولى « دلونكل » ثقة كبيرة ، ويعتمد عليه اعتمادا مطلقا فى التأثير على السياسة الفرنسية ، وكان سن مصطفى كامل الصغير يحمل الخديو على اتخاذ جانب « دلونكل » ، ولهذا السبب عانى مصطفى كامل معاناة شديدة نلمسها فى خطابه المؤثرة الى عبد الرحيم أحمد ، التى قصد بها أن تعرض على الخديو •

ففى خطابه يوم ٨ يونيو ١٨٩٥ ، وهو أشبه بتقرير شامل ، قصد به أن يعرض « على الأعتاب الشريفة بأول فرصة » ! ، أبلغ مصطفى كامل الخديو أنه قدم لوحة رمزية تمثل مصر ترسف فى قيود الاحتلال ، وتستصرخ فرنسا لتعاونها فى التخلص من الاحتلال - الى رئيس مجلس النواب الفرنسى • وقال انه بعث أيضا لرئيس المجلس كتابا يدعو فيه المجلس لمساعدة مصر •

وقد أوضح مصطفى كامل تأثير هذه اللوحة الرمزية فى الأوساط الفرنسية ، فقال ان « كل الجرائد تقريبا فى باريس والمدائن الأخرى نشرتها • فأحدث نشرها تأثيرا كبيرا بين القوم ،

واعتبر الكل هذا العمل استنجادا بفرنسا لا بد أن تجيب عليه .
وقال انه أرسل نسخا من هذه اللوحة لكل النواب وكل
أعضاء مجلس الشيوخ وكل الوزراء ووكلاء الوزارات في فرنسا
وانجلترا ، وكل الجرائد ذات الشأن في لندن وباريس والأقاليم
الفرنسية وسان بطرسبورج « مما زاد العمل أهمية ، وجعل
التأثير شاملا » .

وقال مصطفى كامل ان الجرائد مستعدة لخدمتنا أحسن
خدمة ، وقد دعوت الكثير من أصحابها للعشاء معي ، ولاطفتهم
حتى خلبت عقولهم بحسن الخطاب والاستقبال والاحترام ،
وكلهم مائلون لمصر .

ثم أوضح مصطفى كامل أن الولايم تكلف مصاريف كثيرة،
« الا أني ، مع الحكمة في صرفها ، أراها أنفع ما يصرف .
ولايضاح الحقائق أقول لكم ان بعض الجرائد يطمع في الدراهم!
وقد لمح لي بذلك بعض أصحاب الجرائد . ولكن ان قضت
الظروف بشراء بعضها ، فإنها تكون المهمة منها » .

ثم أخذ في الشكوى من المسيو « دلونكل » ، فذكر أن
الرجل ، رغم ماله بين اخوانه من منزلة ، ورغم ما يشهدون له
بالنباهة والاستعداد وقوة الكتابة والخطابة - الا أن للرجل
عيوبا كما له فضائل ، فمن عيوبه أنه خفيف جدا جدا ! . .

وأضاف ان خفته تضر بنا . « ومثال هذه الخفة أنه يذكر سمو
العزیز (أى الخديو عباس الثانى) فى بعض الأحيان فى وسط
جمع من أصحابه ، ويقول : « قال لى ! ، وقلت له ! » . وأیضا
فى مسألة اللوحة ، أظهر لى من خفته ما لم أكن أنتظره من قبل ! .
فلقد أخرجنى كل هذه المدة وهو يقول لى يوميا : « قدمها
لرئيس الجمهورية ! » ، ويوما آخر : « ان رئيس الجمهورية
لا يقبل هدايا الا من الملوك » ! . وفى الختام قال : « قدمها
اذا لمن تشاء » ! . فقدمتها للمجلس ! . والرجل يحب علو اسمه ،
ويسعى لذلك ، فتراه لا يسر مطلقا اذا رأى تعارفت مع أحد ،
لأنه يريد أن أكون طوع عينيه » .

ثم عرض مصطفى كامل على عبد الرحيم أحمد خطته
السياسية فى فرنسا ، ليعرضها بدوره على الخديو ، « حتى اذا
رضى عنها من لا أغفل عن الدعاء له بالدوام فى السفر وبلوغ
الآمال ، سرت عليها . وان كانت هناك اشارة اتبعتها » .

وكانت نقاط هذه السياسة تتمثل فى الحملة الاعلامية ، التى
رأى ان تقوم على نشر الأحاديث فى الصحف ، والقاء الخطب فى
المنتديات ، ونشر الرسائل المتوالية عن أهم الرسائل المتعلقة
بمصر ، والتعارف على الشخصيات المهمة ، « واهدائهم الهدايا ،
ودعوتهم للولائم عند اللزوم » ، والقيام بجولة دعائية فى
ألمانيا ، « أقدم فيها نسخة من هذه الرسالة الى البرفس

بسمارك ، وأقابله وأسأله آراءه » ! • ثم القيام بجولة دعائية
أخرى في سان بطرسبورج في روسيا • وإصدار جريدة أسبوعية
بالفرنسية والانجليزية عن مصر • وقد ذكر أنها تحتاج وحدها
الى ١٥٠٠ جنيه سنويا •

واختتم خطابه قائلا : « فاعرضوا نص كتابى هذا على
كعبة آمالى سيدى الأعلى (يقصد الخديو) وأرسلوا الى الرد
حالا بأول فرصة • حتى أسير على هذا البروجرام ، ولا يقف
لى عمل • وفى الختام أكلفكم تقبيل الأعتاب الشريفة ، دام مجدها
أبد الزمان » ! •

على أن الرد وصل الى مصطفى كامل من الخديو عن طريق
عبد الرحيم أحمد مخيا لآماله ، ومحذرا تحذيرا شديدا من
الخلاف مع « دلونكل » ! • وكان دلونكل بطبيعة الحال قد
سبق مصطفى كامل الى الشكوى منه ! • ولذلك جاء فى كتاب
عبد الرحيم أحمد اليه قوله : بلغنى أنه وصل من الأخبار
قبل ورود جوابكم الأخير ، أنه حصل بينكم وبين المسيو
« دلونكل » بعض خلاف فى رأى والاجراء ، فنكدرنا ،
ورجونا أن تكونوا دائما على وفاق ووئام معه • ولا أزيدكم
علما بما ينتج عن الفشل والاختلاف والتنازع ، فاجتهدوا أن
يحسن هو الشهادة فى حقكم ! ، ويشير الى ذلك فى محرراته
التي سيرسلها ! • لأن تلك الأخبار أثرت تأثيرا سيئا • فالنصيحة

الصداقة المخلصة من أخيكم وصديقكم أن تبادروا بالحصول على تمام الاتفاق مع مسيو « دلونكل » ، حتى يرد منه ما يمحو كل ما خالج الصدور ! • لابد من الاسترشاد بمسيو « دلونكل » ، والرضا بأن يكون له الفضل في ذلك ، وأن يكون هو السبب في التعارف وغيره • أما السياحة في ألمانيا ومقابلة البرنس بسمارك ، فانها تكون مهمة لو وجدتم من يصحبكم فيها من اخوانكم المصريين لتكونوا وفدا ! • وكذلك الشأن في سياحة « سان بطرسبورج » •

على هذا النحو وضع الخديو عباس الثاني مصطفى كامل تحت الوصاية المطلقة للمسيو « دلونكل » ! • وكان على مصطفى كامل أن يقبل هذا الوضع أو يرفض ، ولكن حبه لبلاده ، وشدة ايمانه بالخديو عباس ، دفعاه الى القبول • ففي خطابه الى عبد الرحيم أحمد في ٢٧ يونيو ١٨٩٥ ، قال انه حين تحدث عن المسيو « دلونكل » كان يقول الصدق ، « اذ أن مثلى لا يصح أن يكذب على مولاه ، أو يغير له اعتقادا يعتقده » • ولكن طالما أن الخديو يريد أن تكون العلاقة بينى وبين المسيو دلونكل على هذا النحو ، « فثقوا بأن العلائق بيننا على غاية ما يرام ، وأنى أستشيريه في كل الأمور ولا أخالف رأيه ، خصوصا وأن رضاء مولاي ربما تغير بتغير العلائق بيننا ! • ورضاء مولاي - كما تعلمون - منتهى رغبتى • فلو أمرنى -

أعز الله شأنه — بأن أذبح خدمة لبلادي ولشخصه الجليل ،
لما تأخرت . وأكرر لكم أنى لا أسأل سيدى الأعلى ومولاى
شيئا غير رضائه عنى . فلو علمت بأقل تغيير فى ثقته بى ورضائه
عنى لاختفيت من على سطح الأرض ، دون أن يعلم لى شأن « ! »

ثم قال مصطفى كامل تلك العبارة المؤثرة التى تبين دوافعه
فى قبول هذا الوضع ، فقال : « وانى ، على شرف نفسى ،
أعتبر أن خدمة الأوطان تحتاج لكثير من التعب وتحمل المصاعب
وملاقاة المشاق . فلا بأس بتحمل مر الكلام وغيره خدمة لمصر
المحبوبة وأميرى العزيز — أعزه الله وحقق له الآمال — فلست أقل
وطنية من الذين قدموا أنفسهم ضحية لبلادهم » !

على أن المتاعب — مع ذلك — لم تترك مصطفى كامل ،
فى تلك التجربة الفريدة ، يخدم بلاده كما يريد . فمن ناحية
فإن الرجل « دلونكل » شق عليه أن يهزمه ويسرق الأضواء
منه شاب صغير لا يتجاوز الواحدة والعشرين من عمره ،
خصوصا بعد أن ألقى مصطفى كامل أول خطبة سياسية له فى
أوروبا فى يولية ١٨٩٥ فى مدرج كلية الآداب فى جامعة تولوز ،
وقوبلت هذه الخطبة بنجاح ساحق . فقد أخذ دلونكل يدس
لمصطفى كامل ، ويبدل مساعيه لاعادته الى مصر !

وهذا ما أثار مصطفى كامل اثارة شديدة . ففى خطابه
لعبد الرحيم أحمد يوم ٤ أغسطس ١٨٩٥ قال متوجعا :

« وآسفاه عليك يا مصر التعيسة ! » وآسفاه على فتاك
الذى تغرب عنك لاسعافك ونصرتك ، معتمدا على كل من فى
قلبه ذرة من الوطنية ، فاذا ما وصل هذه الديار ، وابتدأ فى
خدمة الأوطان ، قامت هذه الخصوم وبعض الأحياء ، ودست
له الدسائس ! • أى وطنى يوافق على رجوعى بعد أن صرت
للانجليز العدو الألد ، والخصم الأشد ؟ • وأى يأس يستولى
على المصريين الذين لا يعلمون يومئذ حقيقة سبب رجوعى » ! •

ويتضح من خطابات مصطفى كامل أنه وقع فى تلك الفترة
تحت اعتقادين : الاعتقاد الأول ، أنه قد كرس حياته تماما لمصر ،
وتخصص فى الدفاع عن قضية مصر ، وأن هذا التخصص سوف
يغلق فى وجهه باب الدفاع فى قضايا الأفراد ، لأن الأفراد سوف
يتجنبون اللجوء اليه للدفاع عنهم خوفا من سريان محاربة
الانجليز له اليهم ! •

ففى خطابه الى عبد الرحيم أحمد يوم ٣١ أغسطس ، الذى
يهاجم فيه فكرة اعادته الى مصر قال : « اذا عدت الى مصر ،
ففى أى المحاكم أترافع ؟ ، وأمام من ؟ • من من المصريين يكلفنى
بالدفاع عنه ، مع علم الناس كافة أن للسياسة على القضاء
تأثيرا عظيما ؟ • أتعرف ماذا يكون شأنى اذا عدت ؟ • يكون شأن
محام كلف بالمرافعة فى قضية ، فجاء الى المحكمة ووضع
محفظته أمام القضاة ، ثم خرج وعاد من حيث أتى • اتنى ذلك

المحامى الذى لا يريد أن يضحك القوم عليه • وخير لى أن أموت
وأقبر فى مجدى الوطنى عن أن أعود الى مصر فى زمن
الاحتلال » ! •

أما الاعتقاد الثانى ، فهو أنه سوف يبقى فى أوروبا حتى
يتحقق جلاء الانجليز عن مصر ! • فلم يكن مصطفى كامل
يتصور فى ذلك الحين أن الاحتلال البريطانى سوف يدوم
أربعة وسبعين عاما ! ، لأن شبابيه وآماله الوطنية وخبرته المحدودة
بالشئون الدولية ، جعلته يقع فى وهم أن الاحتلال البريطانى
يمكن - مع تركيز وتكثيف الحملة الدعائية ضد بريطانيا - أن
يزول فى أمد وجيز ! •

ففى خطابه لعبد الرحيم أحمد يوم ٨ يونيو ١٨٩٥ قال :
« أملى ألا يدوم الاحتلال الانكليزى زيادة عن ١٦ شهرا ! ،
وهو أجل أضربه ، وان كنت ممن لا يحب ضرب الآجال • ولكن
الحوادث تنبئ أن : من هنا الى ١٦ شهرا يتم كل أمر حسن
ان شاء الله » ! •

وعلى ذلك فقد دافع مصطفى كامل عن بقائه فى أوروبا دفاع
المستमित • بينما كان يدور فى السراى صراع عنيف بين مؤيدى
عودته ومؤيدى بقاءه ! • وكان الفريق المؤيد لعودته يتكون من
الفرنسيين فى القصر ، الذين وقفوا بطبيعة الحال الى جانب

« المسيو دلونكل » ، وكانوا يستخفون بمصطفى كامل وما يمكن أن يؤديه ! • كما كان الى جانب هؤلاء الفرنسيين بعض المصريين ، مثل يوسف صديق بك ، وكان قاضيا في المحاكم المختلطة ، ومعاديا للاحتلال ، ولكنه لم يثق كثيرا في مصطفى كامل •

وهذه المجموعة كانت نقيب على مصطفى كامل فزديته ، وعدم ايمانه بالعمل الجماعي ، وفرط ثقته بنفسه ، ومبالغته في وصف تأثير أعماله في الرأي العام الأوروبي ، وتخشى أن يترتب على ذلك آثار ضارة بالعمل من أجل القضية المصرية • ولم تكن تخفى رأيها عن مصطفى كامل ، ففي خطابه الى عبد الرحيم أحمد يوم ١٨ سبتمبر عام ١٨٩٥ قال له :

« انظر الى أخينا يوسف بك صديق وما يعمله معي ! • يرسل لي وللهلباوى بك كتابات مظلمة مكدره للغاية ، كلها سب في وطن علي ! • وأنا لم أرض الرد عليه ، لأننى متألم جدا منها ، وربما دفعنى كدرى الى ما يكدره ، وأنا لا أحب ذلك • فهل جزائى على خدمتى لبلادى أن أسب ؟ ، وأن يقول ان أعمالى كلها ضرر في ضرر على مصر وأميرها ؟ • وليت هذا الفكر فكره ، بل انه رأى الافرنج المتسلطين كما يعلم كل عاقل ! (يقصد مجموعة القصر ودلونكل) ! •

ثم يهاجم هذه المجموعة الفرنسية قائلا : « ان الفرنسيين

مهما تظاهروا لنا بالولاء ، هم كالانكليز يعملون لمنفعتهم • وهم اذا قربنا منهم وتحببنا اليهم ، فانما هي سياسة منا قضت بها الأيام ، نستعملها لاستخدامهم ولتغيير عداوتهم بالحب والولاء ، وان يكن وقتيا • فاذا رأى كاتب أو نائب من الفرنسيين (يقصد دلونكل) أنى أكتب وأخطب وأؤلف لمصر ، وكان هو من المشتغلين بالمسألة ، الموكلين شهرة أو صيتا ، طار الشرر من عينيه ، وكتب ليوسف صديق مستخفا به وبعقله ، قائلا له : ان مصطفى كامل يضر ! • فيقوم عندئذ يوسف فى الحال ويكتب ما يكتب ، ويقول ما يقول • فهل بلغت البساطة منا أن يعتقد بعضنا (على سلامة النية) أن الفرنسيين اذا تكلموا عن مصر يكون لكلامهم وقع فى نفوس السامعين ، مثلما يتكلم عنها واحد من أنائها ؟ • ان الفرق جلى بين خدمة المصرى لمصر والفرنساوى لها • فالفرنساوى يدافع عن حقوق فرنسا فى مصر ، وأما المصرى فيدافع عن مصر نفسها •

على أنه فى مقابل هذه المجموعة التى كانت تحارب مصطفى كامل وتدعو لعودته ، كانت هناك مجموعة أخرى تؤيده وتدافع عنه ، ولكن بشروط • وكان على رأس هذه المجموعة عبد الرحيم أحمد ، الذى كتب الى مصطفى كامل يبدى تقديره لما يقوم به من مناوأة الاحتلال فى الخارج ، ويقول له : « لقد قمت مقاماً أحجم عنه كل مصرى ، وطالبت واستنهضت

الهمم » ، ولكن « هلا طرحت التفاخر جانبا ، واشتغلت في ظل الغير ، حتى تجد من اخوانك من يقتدى بك ، فتقوموا جميعا مطالبين ، ويكون صوتكم حينئذ مسموعا ، واستغاثتكم مجابة ؟ • ربما قلت لى انه يلزم أن يكون المطالب مصريا ! • نعم ، ولكن لا يلزم أن يرفع صوته اذا كان وحيدا ، فيد الله مع الجماعة » •

وواضح أن فرط ثقة مصطفى كامل بنفسه في ذلك الحين كانت تقنعه بقدرته على انجاز كل شيء ! ، بينما كان القصر بفريقيه ، المؤيد والمعارض لمصطفى كامل ، يؤمن بضرورة العمل الجماعي ، الذى يشترك فيه المصرى والفرنسى ، ولا ينفرد فيه مصطفى كامل بالعمل ، بل يسعى لاشراك مصريين آخرين فيه ولذلك حين عرض مصطفى كامل الذهاب الى ألمانيا ، ومقابلة البرنس بسمارك ، وافق القصر بشرط ألا يكون مصطفى كامل وحده ، بل يكون فى وفد مصرى • ولذلك كتب اليه عبد الرحيم يقول ان هذه الزيارة « تكون مهمة لو وجدتم من يصحبكم فيها من اخوانكم المصريين ، لتكونوا وفدا » • ولكن مصطفى كامل رد بأن خطبته فى ٤ يولية « برهنت للناس كافة أن لهذا العاجز من التروى والحكمة ، ولو أنه فى أزهر الشبَاب — ما يكفيه للقيام بهذه المهمة الجليلة ، بدون احتياج لأمر زيد أو بكر » ! • فأثبت تمسكه بالعمل الفردى •

وقد تمثلت خطورة رغبة مصطفى كامل في الانفراد بالعمل، في نفور المصريين في أوروبا منه ، وتقولهم عليه عند عودتهم الى مصر ! . ففى خطاب عبد الرحيم أحمد اليه قال : « حضر السواح الذين كانوا بالبلاد الغربية ، وتفننوا في أساليب الأخبار ، وبالغوا ، وأقسموا بأنهم شاهدوا وسمعوا وعلموا وقرأوا في الجرائد - قصدا سيئا وغرضا ذميما وأفكارا سافلة ! - وبعضهم شهد ضد ما قالوا ، ولكن وبالأسف ، قليل ما هم ! .

وقد شعر مصطفى كامل بهذا الانصراف من جانب المصريين في أوروبا عنه ، وبدلا من أن يدفعه ذلك الى التخفيف من فرديته، التى كان مدفوعا فيها بتطلع مشروع للزعامة - فانه عزز رأيه وموقفه في الاستئثار بالعمل الوطنى وحصره في شخصه .

ففى خطابه لصديقه فؤاد سليم حجازى فى يوم ١٦ يونية ١٨٩٥ ، قال له بصراحة تامة . « انى لا أستطيع الاعتماد على أحد من أبناء جنسى . وانى اذا صودرت (أى منعت من العمل) يوما بأى صورة كانت ، لا أجد من أمتى عضدا أو نصيرا ! . وهذا ما يحزننى كثيرا ، فانى ، مع ارتياحى للمهمة التى عرضت نفسى للقيام بها ، والغرض الشريف السامى الذى أعمل له - أرى أن غيرى من الذين أحب التشبه بهم « كفرانكلين » (يقصد الزعيم الأمريكى الذى أعلن استقلال أمريكا فى ٤ يولية ١٧٧٦) وغيره - كان يعمل ووراءه أمة تعزز مطالبه ، وتدافع عنه ، بعكس ما أنا فيه ! . فالذين يقصدوننى ويوافقون على

أعمالى ، انما يقولون بذلك فى مجالسهم الخاصة ، وربما خافوا
المجاهرة به فى المجالس العامة ، والذين يعترضون على ويطعنون
بى ، يقولون ذلك جهارا ، فهم لم يتركوا لفظا من ألفاظ القباحة
والسفاهة الا ذكروه ، ولم يفوتوا صفة من صفات النقائص
الا نسبوها لشخصى . كل ذلك ولا مدافع عنى . فكأنى بقومى
وهم ساخطون على ناقدون منى ! .

ونلاحظ أن هذا الخطاب قد كتب بعد شهر واحد فقط من
سفره الى فرنسا لأداء مهمته ! . ولم يكن قد أنجز فى ذلك الحين
من الأعمال ما يستحق عليه أية زعامة ! ، اذ لم يفعل غير تقديم
اللوحة الرمزية لمجلس النواب الفرنسى ! .

وهذا يوضح الأزمة النفسية التى وقع فيها مصطفى كامل
فى ذلك الحين ، بين احساسه بالزعامة من جهة ، واحساسه
بأنه لا يلقى التقدير الكافى فى الأمة التى ينتمى اليها من جهة
أخرى . ولم يستطع أن يدرك أن الأمة لا تدين بالزعامة الا لمن
يستحقها ، وكانت حصيلة مصطفى كامل من الانجازات الوطنية
فى ذلك الحين تساوى صفرا بالنسبة لما أنجزه فيما بعد .

وهذا - على كل حال - هو السبب فى الخطأ الفادح
الذى وقع فيه مصطفى كامل فى تلك المرحلة المبكرة جدا من
كفاحه ، حين تصور أنه لا يلقى ما يستحق من معاضدة

الأمة ! ، فكتب الى صديقه فؤاد سليم حجازى فى ٢٩ أغسطس ١٨٩٥ يقول : « دعنى بالله عليك من هذه الأمة التى بلانى الله بأن أكون واحدا من أبنائها » ! • - ذلك أن الأمة المصرية لم تبخل على مصطفى كامل فيما بعد بالتأييد والحب ، حين أثبت فى نضاله أنه يستحق هذا التأييد والحب ، وتغلى عن فرديته ، واتجه الى العمل الجماعى ، الذى توجه فى عام ١٩٠٧ بتأليف الحزب الوطنى •

على كل حال ، فقد ترتب على هذه الظروف المعقدة بالنسبة لمصطفى كامل فى أوروبا ، وحيرة الخديو عباس فيما ينبغى أن يتخذه من موقف ازاء مصطفى كامل - أن توقف عن ارسال النقود اليه فى باريس ، أملا فى حمله على العودة ، دون أن يطلب منه العودة صراحة ! - الأمر الذى أهاج مصطفى كامل ، وسبب له متاعب كثيرة ، لأن الحملة الدعائية التى كان يقوم بها ، فضلا عن نفقاته فى أوروبا ، كانت تتطلب كثيرا من الأموال • لذلك لم يكف مصطفى كامل فى كل خطاب أرسله لعبد الرحيم أحمد عن الاستصراخ طلبا للمال !

قضى خطابه يوم ٣٠ يولية ١٨٩٥ ، به عبد الرحيم أحمد بقوله : « يلزمنى أن أخبركم أن ما لدى من المصاريف لا يكفينى الا لغاية سبتمبر • ولعلكم تعذرونى على صرف ما صرف ، فان كل شئ كان فى محله • ومن مركزه مركزى - لا بد له من الصرف

الكثير • على أنى أستعمل الاعتدال دائما ، وأخاف أن ينسب
الى تبذير • فأرجوكم اخبار مولاي بذلك عند عودته : وفيدونى
عن رأيكم بهذا الخصوص •

وفي خطابه يوم ٤ أغسطس - أى بعد خمسة أيام - كتب
الى عبد الرحيم أحمد يقول : « أخبرتكم فى خطابى الذى
أرسلته من فيينا أن ما لدى من النقود لا يكفينى الا لآخر
سبتمبر • ولعلكم لا تستغربوا من ذلك ، وأتم تعلمون أنى
أصرف كثيرا جدا فى الولائم الخصوصية والهدايا ، وهما العاملان
الوحيدان فى جلب الكتاب الينا • فيدونى عن رأيكم الخاص فى
مسألة مصاريفى » •

ويبدو أن عبد الرحيم أحمد كتب اليه عن استعداد بعض
الأغنياء للتبرع ، فقد رد عليه مصطفى كامل مرحبا بقوله :
« يسرنى كثيرا ما قلته لى من أن بعض الناس مستعد للمساعدة
المادية • فياحبذا لو قام أفراد الأغنياء بالمساعدة ، وخففوا عن
مولانا - أعزه الله - ما يصرفه من المصاريف الطائلة ، التى
ستشمر قريبا ان شاء الله تعالى » •

وفي ١٥ أغسطس ١٨٩٥ كتب الى عبد الرحيم أحمد يقول :
« لا يخفاكم أن المال هو أساس الأعمال • وأنت وحدك تعلم
أن المبلغ الذى سلمته لى لا يكفى الا لهذه المدة ، وما كان من

الاعمال وما يكون في هذا الشهر والشهر الاتي ، فقدنى
وساعدنى » ! • ثم ألحق هذا الخطاب بخطاب آخر يوم
٢٣ أغسطس قال فيه « انى فى حاجة الى المادة كما أسلفت لك
ذكر • ويخجلنى تكراره » •

وفى يوم ٣١ أغسطس ١٨٩٥ كتب الى عبد الرحيم أحمد
يقول : « انى شاعر كل الشعور بخطارة (خطورة) المهمة التى
أخذتها على عاتقى ، والتى كنت أحلم بها فى مصر قبل استلام
زمامها ، وأتمناها آناء الليل وأطراف النهار ، والتى نلتها والفضل
عائد على سيدى الأعلى ، الذى أولانى أشرف الشرف ، حيث
جعلنى محل ثقته فى مثل هذا المشروع الجليل » • ثم يقول :
« انت لم تكلمنى عن شىء أخبرتك عنه ، وقلت لك : ان المادة
على وشك الانتهاء » •

وفى ١٤ سبتمبر ١٨٩٥ كتب الى عبد الرحيم أحمد يلح
عليه فى هذا الصدد ، ويقول : « أرجوكم ألا تقصروا فى ابلاغ
مولاي وولى نعمتى أن ما لدى من المادة نقد ، ويلزم ارسال
ما يأمر به المولى حالا ، حتى لا آيت فى بلبال بهذا الخصوص » •

ثم ألحق هذا الخطاب بخطاب آخر يوم ١٨ سبتمبر ، قال
فيه : « لعلكم تكونوا بلغتكم السيد العزيز (الخديو) أن المادة
نفدت كلها ، وانى فى حاجة الى غيرها • وعسى الأمر يكون قد
صدر لكم وأجريتكم اللازم • فيدونا على أى حال » •

على أن الخديو عباس الثانى صم أذنيه عن سماع هذه النداءات ، على أمل أن يئأس مصطفى كامل ، ويعود الى مصر! . فقد كان قصارى ما وعد عبد الرحيم أحمد مصطفى كامل به ، هو اقناع الخديو بأن يرسل له ما يكفى نفقاته لا غير ! . أو على حد قوله : « أكتب اليك هذا ، وأنا مؤمل أن أتحصل على مطلق شىء ، ولو ما يقوم بمعيشتك لا غير ، حتى تستتب الأمور ! » .

وفى الوقت نفسه أعفى الخديو مصطفى كامل من مهمته ! وهو أمر طبيعى طالما أنه كف عن ارسال الأموال اليه ! . وكان الحل الوسط الذى توصل اليه عبد الرحيم أحمد مع الخديو أن يكف مصطفى كامل عن العمل باسم الخديو ، ويبقى فى باريس كما يشاء تحت أية صفة أخرى كأن يكون طالبا ! .

فقد كتب اليه يقول « أرى ، وربما وافقتنى على هذا رأى ، أن تشيع أنك تريد تحصيل شهادة الدكتوراه فى علم الحقوق ، أو شهادة من مدرسة العلوم السياسية ، لتدفع بذلك ما تجاسر بعض الناس على النصيح به من عودتك والاكتفاء بما سبق ! . فالأولى أن تقف الآن لحظة ترتقب الفرصة ، وتظهر أنك تشتغل بتحصيل العلوم .. والمظنون أن أصل النى تعيين مبلغ يرسل اليك شهريا ، يقوم بمعاشك مؤقتا ، حتى

تلوح الفرصة ، ويتمكن أخوك من اجراء ما يلزم لعود الأمور الى ما كانت عليه » .

وواضح أن هناك أسباب أخرى ، دعت الخديو عباس لاتخاذ هذا الموقف . أولها ، تحرك السلطات الانجليزية في مصر لمضايقة الخديو ، بسبب الدعاية التي يقودها في الخارج ضد بريطانيا من خلال وكلائه الفرنسيين ومصطفى كامل . ففي خطاب عبد الرحيم أحمد السالف الذكر الى مصطفى كامل كتب يقول : « بدأت المناورات العدائية هنا ، فجردوا عساكر البوليس من السلاح والخرطوش ، أما الجيش فهو مجرد منها من زمن بعيد ! ، ولحقت بهذه الديار تهديدات ثورة الأرمن وخلافها ، والظاهر أنهم يريدون بنا سوءا » ! .

أما السبب الثاني ، فلعله خوف عباس الثاني من الزعامة التي يسعى اليها مصطفى كامل ! . لأنها اذا تحققت ، فسوف تكون زعامة شعبية تكشف زعامته الملكية ، وتوقعه في نفس المأزق الذي وقع فيه والده في أثناء زعامة عرابي ! . ويصبح كالمستجير من الرمضاء بالنار ! . ولا تنسى أن كلا من عباس حلمي ومصطفى كامل كانا في عمر واحد ، فكلاهما ولد في عام ١٨٧٤ ، وكلاهما يحركه طموح شخصي يختلط بعمله الوطني ! .

على أن مصطفى كامل رفض الدخول في القمم الذي أخرجه منه عباس الثانى ! • وإذا كان الخديو عباس قد منع عنه المال ، فقد أخذ مصطفى كامل بطلبه من جهات وطنية صديقة أخرى لم تبخل بدفعه •

وهذا ما تكشفه خطابات مصطفى كامل لصديقه فؤاد سليم الحجازى • فقد أرسل اليه يطلب منه أن يرسل اليه بعض المال • وفى يوم ١٦ أكتوبر ١٨٩٥ كتب اليه نافذ الصبر يستعجله فى ارسال المال بقوله : « انى مندهش جدا حيث أنه لم يصلنى منك لا برقية ولا نقود » ! • ثم أعلن اليه أنه فقد ثقته فى الخديو قائلًا : « اننى حاليا يائس من واحد ، هو الخديو ! • ان مقدار ما بعثه لى يكفى فقط لأسدد تقفات الفندق » ! • ثم أبلغ مصطفى كامل صديقه بقراره عدم العودة الى مصر : « اننى صممت على عدم رجوعى الى مصر ، لأن وجودى فى فرنسا مهم جدا للقضية التى كرسى لها نفسى جسدا وروحا • لقد قررت الا أعود الى مصر الا اذا يئست من معاونة الوطنيين » •

ثم سأل مصطفى كامل صديقه فؤاد سليم قائلًا : « أليس فى استطاعة والدك والهلباوى ومحمود سالم ، أن يرسلوا لى سنويا ٤٠٠ جنيه ، ما داموا يعتبرون أنفسهم وطنيين ويقدرّون جهودى الوطنية ؟ • وإذا كانوا غير قادرين على مساعدتى ، فانى

سأعود الى مصر يائسا فاقد الأمل ، ليس من أجل الجلاء
فحسب ، بل من أجل مستقبل الأمة المصرية . بلغ والدك أنى ،
باسم الوطن المقدس ، وليس باسم الصداقة - ألتمس منه هو
وحده أن يرسل لى مبلغ ١٥٠ جنيها هذا الشهر ، لهذه السنة
كلها ، ولن أطلب منه شيئا بعد ذلك . وفى السنة المقبلة سوف
أدبر أمرى ، فوالدك يدفع ١٥٠ جنيها ، والمهلباوى ١٥٠ جنيها ،
ومحمود سالم ١٠٠ جنيه . ان ٤٠٠ جنيه من هؤلاء الوطنيين
الثلاثة ستكون لها قيمة كبيرة عندى أكبر من تقود عباس .

على أن فؤاد سليم رد عليه بأن أنصار الاحتلال استطاعوا
أن يخمدوا صوت الشعب « مما لا يرجى منه أية مساعدة له » !
وقد رد عليه مصطفى كامل غاضبا : « تقول انه لا يوجد فى مصر
شعب جرىء قادر على مساندتى ! . ولكن أيها البائس ، ان
والدك وأصدقاءه هم جزء من هذا الشعب ! . كفاك هزلا ،
انى أرى أنكم وطنيون عندما يكون الخديو وطنيا ، ولستم
وطنيين عندما يكون العكس ! . انى لن أغادر أوروبا ، لا فى خلال
هذا الشهر ، ولا فى الشهر القادم ، وانى أنوى الإقامة فيها » ! .

على أن الخديو حين رأى أن امتناعه عن ارسال المال الى
مصطفى كامل لم يجبره على العودة ، أرسل اليه أمرا صريحا على
يد « جافيو » بالعودة ! . ولكن مصطفى ترمد على هذا الأمر،
وبقى الى نهاية العام ! .

على أن مهمته كانت قد أصبحت مشلولة بالفعل . فالعمل الاعلامى يحتاج الى أموال وسفر وإقامة مآدب وحفلات ، وهو ما عبر عنه مصطفى كامل بقوله : « المال هو أساس الأعمال » ! . وكان ما يرسله له الخديو يكفى بالكاد لسداد نفقات الفندق فقط ! . وبذلك تضاعف عمل مصطفى كامل فى أوروبا ، وزال عنه بريق المآدب والحفلات ، كما لم يعد يملك ما يدفعه من مرتب للسكرنير الذى اتخذه ، والذى كان يتقاضى شهريا مائتى فرنك ! . وانهى تقريبا كل نشاط مصطفى كامل لمدة ثلاثة أشهر (من سبتمبر الى ديسمبر ١٨٩٥) . فيما عدا خطبة ألقاها فى الجمعية الجغرافية بباريس يوم ١١ ديسمبر . وان كان قد كسب فى تلك الفترة التعرف على مدام جوليت آدم ، الكاتبة الفرنسية المشهورة التى كانت تبلغ الستين عاما ، وكسب تعييدها للقضية المصرية .

وهكذا اضطر مصطفى كامل الى العودة الى مصر فى ٩ يناير ١٨٩٦ ، بعد أن أثار انتباه بعض جوانب رأى العام فى بعض البلاد الأوربية الى المسألة المصرية التى كانت قد أخذت تنزوى فى ركن مظلم بعد الاحتلال . فبالإضافة الى أحاديثه فى الصحف الفرنسية ، وخطبته فى كلية الآداب بجامعة تولوز ، والجمعية الجغرافية بباريس ، واتصالاته — فقد نشر كتابا باللغة الفرنسية بعنوان « أخطار الاحتلال البريطانى » ، أوضح فيه

بذكاء أن بقاء الاحتلال البريطاني لمصر لا يهدد مصالح مصر وحدها ، بل يهدد المصالح الأوروبية في أوروبا وفي مستعمراتها الأفريقية باخلال التوازن في البحر المتوسط ، وسيطرة إنجلترا على قناة السويس . وبطبيعة الحال فإن مصطفى كامل لم ينبه أوروبا الى خطر تجهله ، وانما كان يناشدها باسم الأخطار المشتركة مساعدة مصر على طرد الاحتلال .

وقد كانت المشكلة التي واجهها مصطفى كامل بعد عودته الى مصر هي علاقته بالخديو عباس ، التي تأثرت بكل ما حدث في خلال الأشهر التي قضاها في باريس وتمرده على العودة .

وقد أخذ مصطفى كامل على الفور في محاولة حل هذه المشكلة . فلم يكد يصل الى مصر ، حتى كتب الى الخديو خطابا مباشرا في يوم ١٦ يناير ١٨٩٦ (أى بعد أسبوع واحد من عودته) قصد به - على حد قوله : « شرح الأسباب التي أخرت حضوري من شهر أكتوبر الى الآن ، عساني أستعيد ثقة سموكم ، التي تريد فئة من أدعياء الوطنية سلبها مني ، وما هي عاملة الا ضد الوطن نفسه » .

وفي هذا الخطاب تذرع مصطفى كامل - بذكاء - في رفضه العودة الى مصر ، بمصلحة الخديو عباس نفسه ! . فقال : « ما وصلني نبأ الأمر الكريم بالعودة الى الأوطان ، الا وشعرت

بأنه مسبب عن تهديد انكليزى ! • فرأيت من الحكمة أن أؤخر عودتى ، صيانة لكرامة سموكم ، إذ أنى إذا كنت عدت حينذاك ، كان تحقق الانكليز من أنى مرسل فى أوروبا من قبل جنابكم « ! • ثم وصف خصومه من رجال الخديو بأنهم « أشد بلاء على مصر من الانكليز أنفسهم » ! •

على أن الخديو لم يرد على مصطفى كامل ! • مما دفعه الى الكتابة الى عبد الرحيم أحمد فى ٢٥ يناير ١٨٩٦ يطلب اليه أن يحدد له « مقابلة مخصوصة » مع الخديو « أنفى فيها عن نفسى ما نسبته ذوو الأغراض لى ، ولكى أعلم إذا كان سموه لا يريد نهائيا مساعدتى فى خدمة بلادى ، حتى يتيسر لى عندئذ أن أعمل ما أريد فى مصر ، أو خارجا عنها ، عاجلا أو آجلا » ! •

وعندما استمر الخديو فى تجاهل مصطفى كامل ، كتب الى عبد الرحيم أحمد خطابا مرة أخرى فى ١١ فبراير ١٨٩٦ ، هدد فيه بأنه إذا لم يحدد له الخديو مقابلة « هذا الأسبوع ، فانى أحمل كل هذا التأخير على عدم حاجتكم الى خدماتى ، وأظنكم لا تلوموننى إذا عملت من أول الأسبوع الآتى بغير استئذانكم أو انتظار تبليغاتكم » ! •

ثم ألقى مصطفى كامل بقبلة يوم ١٩ فبراير حين كتب الى عبد الرحيم أحمد خطابا أعلن فيه — حسب قوله — « أنى عزمت

عزما نهائيا على مبارحة الوطن المحبوب الأسبوع القادم .
وأرجوكم أن ترفعوا ذلك النبأ الى مولاي أعزه الله . وما يحملنى
على تعجيل السفر غير اعراض الأمير الجليل عنى . فلقد مضى
على فى مصر أربعون يوما وأنا أنتظر الأمر العالى بتشرفى بمقابلة
العزیز حفظه الله ، والى الآن لم يتكرم بهذه المنحة لأعرض له
صدقى لجنابه وخيانة غيرى الخيانة العليمة . وعلى أى حال فانى
مبارح الأوطان غير نادم على ما كان ، بل متخذا كل ما رأيته
وعلمته دروسا لى أستفيد منها فى المستقبل . فشرفونى قبل يوم
الأحد ، لأنى مبارح القاهرة مساء الأحد الآتى ان شاء الله « ! .

وما حدث بعد هذا التهديد ، لا توجد وثائق مكتوبة
توضحه ، ولكننا تفاجأ بمصطفى كامل يلقي خطابا وطنيا فى مدينة
الاسكندرية يوم ٣ مارس ١٨٩٦ - أى بعد أيام قلائل من اليوم
الذى حدده للسفر الى أوروبا ! . ومعنى ذلك بصورة حاسمة
عودة الحياة الى مجاريها بينه وبين الخديو ، وتلقيه أمرا بالبقاء
فى مصر .

وهنا يثور السؤال : ما الذى دعا الخديو عباس الثانى الى
الانصياع لتهديد مصطفى كامل ؟ .

هناك سببان مطروحان : الأول ، حاجة الخديو الى
مصطفى كامل فى صراعه مع الانجليز . خاصة بعد ما أثبت

مصطفى كامل من كفاءة في العمل السياسى • والثانى ، خشية الخديو عباس حلمى من مصطفى كامل ، بعد أن أثبت له أنه يستطيع مخالفته وعدم اطاعة أوامره والتمرد على تعليماته عند اللزوم ! •

وفى الحقيقة أن هناك سببا آخر أشعر الخديو عباس بأن مصطفى كامل يمكن أن يكون حربا عليه عند اللزوم ، ويفتح عليه جبهة ثانية • فعندما كان مصطفى كامل فى أوروبا ، وحين أحس بتزايد الدسائس فى القصر ضده ، أعلن ولاءه للسلطان العثمانى الذى هو صاحب السيادة على مصر • فقد كتب الى عبد الرحيم أحمد يوم ٣٠ يولية ١٨٩٥ يخطر به بأنه فى عزمه « عقد حفلة مصرية محضة فى ٣١ أغسطس الآتى ، بمناسبة عيد جلالة السلطان ، حتى لا يقال ان سياستى حادت عن السياسة العثمانية ، بل انها مصرية تركية » • وفى الحفل الذى أقامه أعلن « أن الراية العثمانية هى الراية الوحيدة التى يجب أن نجتمع حولها » ! •

وقد استحق مصطفى كامل بهذا الاحتفال رضاء السلطان العثمانى ، حتى انه تلقى خطابا من سفير الدولة العثمانية يبلغه فيه رسميا « امتنان الحضرة السلطانية الامتنان العالى » • وقد نشر نص هذا الخطاب فى الصحف بعد أن أرسله مصطفى كامل اليها ، وكتب به فخورا الى عبد الرحيم أحمد ! • ولكن هذا

العمل لم يلق ارتياحا من القصر في مصر ، خاصة أنه حدث
ومصطفى كامل يشكو من تفاد المال ويطلب غيره ! • وقد رد
مصطفى كامل على ذلك في خطابه نعيد الرحيم أحمد يوم
١٨ سبتمبر ١٨٩٥ بقوله : « ومما يلومني عليه ، وليمة السلطان ،
وكون الناس تتساءل : من أين أصرف هنا ؟ • ولم اللوم على
وليمة السلطان وقد عقدت مثلها السنة الماضية : وصرفت عين
المصاريف ؟ » •

وعلى ذلك فقد كان على عباس حلمي إنهاء مقاطعته
لمصطفى كامل ، ولكن على أساس جديد هو العمل في مصر لا في
أوروبا ! • وهذا هو السبب في هذا التحول الفجائي في خطة
مصطفى كامل ، التي قامت حتى لحظة عودته الى مصر ، على أن
ميدان العمل ضد انجلترا هو في أوروبا لا في مصر • بدليل
معارضته في عودته الى مصر الى حد التمرد ، وعدم اطاعة أوامر
الخديو ! • بل انه كتب الى الخديو يوم ١٦ سبتمبر ١٨٩٥ يقول :
« ان وطنيتي وحبى للأمر يقضيان على أن أرفض رفضا قطعيا
العودة الى مصر ، ما دام الانكليز فيها » ! •

وفيما يبدو أن الخديو عباس أقنع مصطفى كامل بأن أى
عمل في أوروبا ، اذا لم يستند الى قوة الراى العام في مصر ،
فلن يقدر له النجاح ، وأن هذا هو سبب الالاحاح عليه في
عودته الى مصر •

وفي هذا الضوء تعد خطبة مصطفى كامل في المسرح العباسي في الاسكندرية يوم ٣ مارس ١٨٩٦ ، بداية تحول هام في العمل الوطني ، وهي ليست بعيدة الصلة عن نشاط الخديو ، لأن اسماعيل بك الشيمي ، الذي نظم هذه الحفلة ، والذي أقام عنده مصطفى كامل بالاسكندرية ، كان ياور الخديو ! • وان كانت قناعة مصطفى كامل بالدور الأوروبي في حمل انجلترا على الجلاء لم تزل تملك عليه عقله ، بدليل أنه ألقى خطبته الثانية في مسرح زيزينيا بالاسكندرية بعد أربعين يوما - أى في يوم ١٣ أبريل ١٨٩٦ - باللغة الفرنسية لا العربية ! ، وألقاها على الأوروبيين المقيمين في مصر •

على أنه في نفس هذا العام ١٨٩٦ كانت محاولات الخديو عباس لتجميع قوة وطنية ، تعمل مع مصطفى كامل في خدمة القضية الوطنية ، تتكلل بالنجاح بتأليف جمعية سرية تحت رئاسة الخديو ، وكانت الظروف قد تهيأت لذلك حين ألف أحمد لطفى السيد ، الذي كان قد عين وكيلا للنياحة في ذلك العام ، جمعية سرية من زملائه ، غرضها - كما يقول - « تحرير مصر » • وقد ضمت هذه الجمعية ، فيمن ضمت ، عبد العزيز فهمي وأحمد طلعت رئيس النياحة •

ولم يخف تأليف هذه الجمعية عن الخديو ، فيذكر أحمد لطفى السيد أنه « ذات يوم ، كنت بالقاهرة بعد تأليف تلك الجمعية ، فالتقيت بمصطفى كامل ، فقال لي : ان الخديو

عباس يعلم كل شيء عن جمعيتكم السرية وأغراضها ، وأظن أنه لا تنافي بينها وبين أن تشترك معنا في تأليف حزب وطني تحت رئاسة الخديو » ! • فأجبتة : « لا مانع عندي من ذلك » •

ثم يقول أحمد لطفى السيد ان مصطفى كامل « أبلغ الخديو هذا القول ، وأستأذن لي في مقابلة سموه • وذهبت اليه، فتحدثت معي سموه عن أغراض الحزب الذي يريد تأليفه • وبعد ما خرجت من مقابلة الخديو عباس ، اجتمعت أنا ومصطفى كامل وبعض زملائنا في منزل محمد فريد ، وألفنا الحزب الوطنى كجمعية سرية رئيسها الخديو ، وأعضاؤها مصطفى كامل ومحمد فريد ، وسعيد الشيمى ياور الخديو ، ومحمد عثمان (والد أمين عثمان باشا) ، وليب محرم (شقيق عثمان محرم باشا) • وأنا » - أى أحمد لطفى السيد •

وهذا الحزب الوطنى ، الذى يتحدث عنه أحمد لطفى السيد ، غير الحزب الوطنى الذى ألفه مصطفى كامل فى عام ١٩٠٧ • فالأول جمعية سرية تحت رئاسة الخديو ، وكان يجتمع بها ليلا فى مسجد « بناحية سراى القبة » - والثانى هو الحزب الوطنى الذى ألفه مصطفى كامل فى ظروف مختلفة • ويقول أحمد لطفى السيد ان أسماء أعضاء هذه الجمعية السرية كانت مستعارة ، فقد كان اسم الخديو بين الأعضاء ، « الشيخ » ، ومصطفى كامل « أبو الفداء » ، وأحمد لطفى السيد « أبو مسلم » ! •

وقد كانت فكرة الخديو هي انشاء جريدة في مصر تقاوم الاحتلال البريطاني . وحتى تكون غير خاضعة لسلطة الاحتلال ، فقد رأى الخديو أن يسافر لطفى السيد الى سويسرة للتجنس بالجنسية السويسرية ، حتى يتمتع بالامتيازات الأجنبية ، ويعود ليصدر الجريدة . فسافر فعلا الى جنيف ، ولكن اتصالاته بالشيخ محمد عبده هناك أغضبت الخديو منه ، لأنه لم يكن يميل الى الشيخ محمد عبده . ولذلك يذكر أنه عندما عاد الى مصر « جاءنى مصطفى كامل ، وأقضى الى بأن الخديو مغضب منى لأسباب منها اتصالى بالشيخ عبده » ! . ثم قال مصطفى كامل : « ومع ذلك لم تنجح فى الحصول على موافقة الباب العالى على تجنسك بالجنسية السويسرية » .

فى ذلك الحين كانت الصيغة التى تم الاتفاق عليها بين الخديو ومصطفى كامل هى الجمع بين العمل الوطنى فى الداخل وفى الخارج ، لأن مصطفى كامل لم يلبث أن سافر الى أوروبا فى أول أغسطس ١٨٩٦ ، وهو سفر ليس بعيدا عن نشاط الخديو ، لأن جريدة المؤيد للشيخ على يوسف ، الوثيق الصلة بعباس الثانى ، نوهت بسفر مصطفى كامل فى عددها الصادر فى ٢ أغسطس ١٨٩٦ -قائلة : « كان من جملة الذين بارحوا ثغر الاسكندرية أمس الى أوروبا ، حضرة الكاتب الفاضل والخطيب

الوطني البليغ مصطفى أفندي كامل ، فودعه على ظهر البحر كثير
من أصدقائه وأخوانه » ! •

وقد تمثل نشاط مصطفى كامل في تلك الرحلة ، التي
استغرقت ثلاثة أشهر ، (من أول أغسطس الى ١١ نوفمبر ١٨٩٦)
في الأحاديث التي أدلى بها في الصحف في باريس وبرلين وفيينا ،
التي عبر فيها عن كراهية الشعب المصري للاحتلال ، وهاجم
فيها بريطانيا لرفضها الجلاء ، وأكد حق مصر في الاستقلال ،
ودعا « كل ذوى الضمائر الحرة من جميع الأمم لانقاذ مصر » •
كما قابل بعض رجال السياسة في ألمانيا والنمسا لشرح لهم
فيها المسألة المصرية • كما استغل بذكاء ثورة الصحافة الأوروبية
على الدولة العثمانية بسبب مذابح الأرمن ، فكتب الى المستر
جلادستون يلومه لأنه يكيل بمكيالين ، فيدافع عن الأرمن ،
ويسكت على الاحتلال البريطاني لمصر ! •

ولكن أهم ما فعله في تلك الرحلة هو ذهابه الى الآستانة
في ٢٧ نوفمبر ١٨٩٦ • ولما كان في العام السابق قد احتفل
بعيد السلطان العثماني ، وأعلن في الاحتفال أن الراية العثمانية
هي الراية التي يجب أن يجتمع حولها المصريون — فلذلك لقي
حفاوة كبيرة ، وقابله السلطان العثماني بعد ثلاثة أيام ، ليعرب
له عن إعجابه به وحسن تمنياته ، وأهداه هدية ثمينة هي علبة

مجائر من الذهب مرصعة بالماس والأحجار الكريمة داخل صندوق صغير من الذهب والفضة .

ومن الطريف أن السلطان العثماني أبدى رغبته في منح مصطفى كامل رتبة أونشانا ، ولكنه اعتذر ، حتى لا يتهم من قبل خصومه في مصر بسعيه الى الألقاب والنياشين ! . فلما عاد الى مصر لأمه أصدقاؤه على عدم القبول ، لأن الألقاب في مصر والشرق تعظم من شأن الرجل وتعلو من قدره ، وتساعد على الظهور في قومه . وقد اقتنع مصطفى كامل بهذا المنطق ، وقبل من السلطان في ١٨٩٩ رتبة البكوية ، وفي عام ١٩٠٤ رتبة الباشوية .

وقد عاد مصطفى كامل الى مصر ١٨٩٧ ليواجه مؤامرات الاحتلال . نظرا لأنه بلغ سن الثانية والعشرين من عمره ، فقد أوعزت السلطات البريطانية الى مجلس قرعة القاهرة بطلبه للتجنيد في غيابه ! فطلب المجلس من مأمور قسم الخليفة ، الذي كان مصطفى كامل يتبع له ، تبليغ اعلان الاقتراع لأحد أفراد بيته ، فاذا مضت ثلاثة أشهر على الاعلان دون معارضة، يصبح تجنيده واجبا . وهكذا فوجيء مصطفى كامل عند دعوته باعلان القسم بوجوب تجنيده ، لعدم اعتراضه على الاعلان الأول ! . ولكنه تمكن من الحصول على اقرار من شيخ الحارة يفيد أنه لم يسلم هذا الاعلان الأول لذويه . ولما كانت قوانين

البلاد تستثنى من الفرعة حملة شهادة الحقوق والقادرين على دفع
البدل ، فلذلك عجزت السلطة البريطانية عن تحقيق أغراضها في
انتزاع مصطفى كامل من مهمته الوطنية التي جند نفسه لأجلها ،
وتجنيد كنفه تحت سلطة ضباطها البريطانيين ! •

وفي السنتين التاليتين ١٨٩٧ ، ١٨٩٨ ، كثف مصطفى كامل
من حملاته الدعائية ضد الاحتلال في أوروبا • فقد سافر الى
أوروبا مرتين في عام ١٨٩٧ ، الأولى من ١٢ مارس الى ١٢ مايو ،
وقد زار فيها فيينا وبوخارست وبرلين وباريس ، والثانية
من ٢٦ يونية الى ١٠ أكتوبر ، وقد زار فيها الآستانة وبودابست
وفينسا وباريس • وفي عام ١٨٩٨ زار أوروبا في الفترة من
٢٤ يونية الى ١٨ سبتمبر وزار فيها باريس وبرلين •

وكان مصطفى كامل يحصل على بعض تفقات هذه الرحلات
من صديقه محمد فريد ، كما يفهم من خطاباتة اليه ! • ففي يوم
٢٢ يوليو ١٨٩٨ أرسل اليه من باريس يقول : « أرجوك غاية
الرجاء أن ترسل لي يوم وصول هذا خمسمائة فرنك بالتلغراف
بواسطة الكريدي ليونيه • لاعدمتك أخا وفيما » • وفي
١٩ أغسطس كتب اليه من باريس يقول : « أظن أني أسافر
لبرلين يوم السبت أو الأحد القادم ، وأمل في هنتك العالية
ووفائك أنك ترسل لي تلغرافيا يوم السبت صباحا

(٢٧ أغسطس) بواسطة الكريدى ليونيه ألف فرنك ، ولو كلفك
مهما كلفك ، حتى لا أضع نفسى فى موقف حرج » •

— أما فيما يختص ببقية المساعدات المالية فكان يأخذها —
كما يقول محمد فريد فى مذكراته — من الخديو أو من السلطان
عبد الحميد ! •

ومعنى هذا الكلام أن مصطفى كامل كان حتى ذلك الحين
يؤمن بأن العمل فى أوروبا هو الكفيل بإجبار إنجلترا على الجلاء
عن مصر ! •

وفى الحقيقة أنه كان لدى مصطفى كامل والخديو
عباس الثانى فى ذلك الحين ما يدعوهما الى الأمل فى تدخل فرنسا
لصالح مصر سريعا • ففى ذلك الوقت كان التنافس الاستعمارى
بين فرنسا وإنجلترا فى قلب افريقيا على أشده ، وكان الصراع
على اقتسام مناطق النفوذ فى السودان قد بلغ ذروته • وقد
فكرت فرنسا فى استغلال المسألة المصرية لانتزاع مركز هام فى
أعالى النيل ، تصد به تيار الزحف الانجليزى فى باطن افريقية ،
وتفتح باب المسألة المصرية على مصراعيه ، وتجبر إنجلترا على
تنفيذ عهودها فى الجلاء عن مصر • ولتنفيذ هذه الأغراض
أعدت حملة عسكرية بقيادة الكابتن مارشان لاحتلال فاشيودة
الواقعة على النيل •

وقد استطاع الساسة الفرنسيون اقناع الخديو ومصطفى كامل ومن يلتف حولهما من المصريين ، بأن حملة مارشان هي الحاملة لراية استقلال مصر ! • فصاروا - كما كتبت مدام جوليت آدم فيما بعد - « يعتقدون أن تحرير وطنهم سيأتى من السودان » على يد فرنسا •

وهذا يفسر الخطاب الذى بعث به مصطفى كامل الى محمد فريد يوم ٥ أغسطس ١٨٩٨ من باريس • فقد كتب يقول : « شرف العزيز (أى الخديو) وسافر ! • وتشرفت بمقابلته جملة مرات - وهذا الخبر لك وحدك ! • وعلمت منه أموراً جمة سرتنى للغاية (يقصد أخبار حملة مارشان الفرنسية) وشرحت صدرى وحققت لى أن الأمل ملء فؤاده ، وأن ليس لليأس عليه سلطان • وسأقابله مرة أخرى فى الشهر الآتى • وقد قابل هنا وهناك كل ذى شأن وكل عظيم ، واستمال من لا يستمال • فله منا الود والاخلاص والحب الحقيقى ، وانه لجدير بأن تتفانى فى محبته • ولم أكلفه مدة وجوده ، ولم أطلب منه شيئاً ، ولو أن سفرى لألمانيا سيكلفنى كثيراً ، وذلك لأننى لا أود أن أجعله يرتاب فى اخلاصى الخالص له • وسأبذل جهودى بعد عودتى للوطن المحبوب فى أن أكون مستقلاً غاية الاستقلال ، لنزداد عنده مكانة وثقوداً » •

على أن انجلترا انتهزت فرصة حملة مارشان ، لتقلب

المائدة على رأس فرنسا ومن يعلقون عليها الآمال ! • فحين
أحتل مارشان فاشودة يوم ١٠ يولية ١٨٩٨ ، تظاهرت انجلترا
بالدفاع عن حق مصر فيها ، واحتجت باسم مصر على فرنسا
باعتبار فاشودة أرضا مصرية • ثم أعد اللورد كتشنر ، سردار
الجيش المصرى ، حملة مكونة من ١٨٠٠ مصرى ومائة جندي
بريطانى ، وصلت الى فاشودة فى سبتمبر ١٨٩٨ ، وأبلغ مارشان
أن رفعه العلم الفرنسى « على أملاك سمو الخديو » يعد انتهاكا
لحقوق مصر ! • وهنا توترت العلاقات بين فرنسا وانجلترا الى
الحد الذى هدد بقيام الحرب بينهما • ولكن فرنسا تخاذلت ،
وأمرت مارشان بالجلاء عن فاشودة • وهو ما تم يوم
١١ ديسمبر ١٨٩٨ •

وقد كان من الطبيعى أن تمثل حادثة فاشودة ضربة قاسية
لكل الوطنيين الذين كانوا يعلقون الآمال على فرنسا ، وعلى
رأسهم مصطفى كامل والخديو عباس ! • وان اختلف رد الفعل
عند كل منهما •

ففيما يتصل بالخديو عباس ، فقد أخذ منذ ذلك الحين
يتجنب الدخول فى أزمت بينه وبين بريطانيا ، قد تعرض عرشه
للخطر ، فلا يجد معينا من أوروبا أو تركيا • بل أخذ فى التودد
الى الاحتلال والنزول عند ارادته ، حتى انه زار لندن
عام ١٩٠٠ ! •

أما فيما يتعلق بمصطفى كامل فقد اتخذ رد فعل حادثة فاشودة عنده اتجاهها عكسيا . لقد كتب الى جريدة « جلوا » يقول : « نحن لا نطلب من فرنسا أن تحارب بريطانيا من أجل فاشودة . كلا ، ولكنى كنت أرى من الحكمة أن تشترط فرنسا ، قبل أن تترك فاشودة ، على بريطانيا أن تعيد كل شيء كما كان في مصر . لكنها أخجلتنا بالعط من كرامتنا » ! .

ثم أخذ مصطفى كامل ينقل نشاطه من أوروبا الى مصر في أعقاب هذه الحادثة . ففي خلال عام ١٨٩٩ أخذ يعد العدة لإصدار جريدة يومية ، يتصل من خلالها بالرأى العام في مصر ، خصوصا بعد أن أخذت جريدة « المؤيد » ، الوثيقة الصلة بالخدو ، تبدى نوعا من الفتور في نشر بعض مقالات مصطفى كامل ، بسبب فتور علاقته مع صاحبها . وقد صدر العدد الأول من « اللواء » يوم الثلاثاء ٢ يناير ١٩٠٠ .

وبصدور « اللواء » يدخل نضال مصطفى كامل منعظا خطيرا . فهو يمثل البداية الحقيقية لصياغة الرأى العام في مصر صياغة وطنية صلبة ضد الاحتلال ، ويمثل بالنسبة لمصطفى كامل ، البداية الصحيحة لزعامته السياسية . فحتى ذلك الحين كانت معرفة الرأى العام المصرى بمصطفى كامل تتم من خلال ما يصل اليه من أخبار نضاله في أوروبا من أجل المسألة المصرية في الأعوام الخمسة السابقة ، ومن خلال قليل من الخطب التى ألقاها في

مصر ، وبعض المقالات • ولم يكن في عين الرأي العام أكثر من
« حضرة الكاتب الفاضل والخطيب الوطنى البليغ » ! - كما
وصفته جريدة المؤيد •

ولكن انشاء جريدة « اللواء » كان اللبنة الأولى فى انشاء
الحزب الوطنى ، ليس بمعنى « الجمعية السرية » التى تألفت
قبل أربع سنوات تحت رئاسة الخديو ، وإنما بمعنى الحزب
الجماهيرى الذى يعمل تحت رئاسة مصطفى كامل ، والذى ارتفع
بمستوى المعركة ، التى كانت دائرة على السلطة بين الخديو عباس
والانجليز ، الى مستوى معركة وطنية لتحرير البلاد •

وفى الحقيقة أن الأحزاب السياسية فى مصر نشأت فى تلك
الفترة التاريخية فى شكل صحف سياسية ! ، ثم أعلنت نفسها
فيما بعد أحزابا • فقد ظهر حزب الأمة أول ما ظهر فى شكل
صحيفة سياسية باسم « الجريدة » صدرت فى ٩ مارس ١٩٠٧ •
كما تحولت جريدة « المؤيد » الى حزب « الإصلاح على المبادئ
الدستورية » فى ٩ ديسمبر ١٩٠٧ • ثم تحولت جريدة « اللواء »
الى « الحزب الوطنى » فى ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ • وهذا هو
السبب الذى دعا بعض المؤرخين الى وصف هذا الصور من
أطوار الحركة الوطنية باسم « الطور الصحافى » ! •

وفى الفترة من ظهور « اللواء » فى ٢ يناير ١٩٠٠ الى ١٩٠٤

كانت « اللواء » لا تدخر وسعا في دعوة الشعب الى الالتفاف حول الخديو عباس الثانى ، باعتباره - حسب قولها - « أول أمير أرشد الأمة الى محبة الوطن ، وأوقفها على ما لها من الحقوق ، وما يجب أن تكون عليه من المجد الجزيل والشرف الأثيل » .

على أنه فى عام ١٩٠٤ أخذت تتجمع بعض الأسباب التى أثرت على علاقات مصطفى كامل بالخديو عباس ، ودعته الى قطع علاقته به . وأول هذه الأسباب مساندة الخديو للشيخ على يوسف صاحب المؤيد ، فى قضية زواجه من صفة ابنة السيد عبد الخالق السادات . وكان السيد السادات قد رفض زواج ابنته بالشيخ على يوسف لعدم الكفاءة ! . فرغم أن الشيخ على يوسف كان من نجوم المجتمع ومقربا من الخديو ، وصحفيا كبيرا ، الا أن صفة « الكفاءة » فى ظروف المجتمع المصرى الرجعى التى كان يمر بها وقتذاك ، كانت تقوم على شرف المولد ولا تقوم على العصامية والجهد الشخصى ! ولكن الشيخ على يوسف لم يعبأ بموافقة السيد السادات وتزوج بابنته رغما عنه ! ، مما دفعه الى رفع قضية على الشيخ يطلب فسخ زواجه بها لعدم الكفاءة الاجتماعية ! .

وقد افترق موقفا كل من الخديو عباس ومصطفى كامل ازاء هذه القضية . فقد وقف مصطفى كامل موقفا معاديا

ومهاجما ، مماثلًا للرأى العام ، الذى كان — بسبب تخلفه — ضد زواج الشيخ على يوسف بصفية السادات رغم ارادة أييها ! — بينما وقف الخديو مؤيدا ، حتى انه أرسل أخاه محمد على لمصر قبل ميعاد عودته من أوروبا ليتكلم مع قاضى مصر اذ ذاك يجيى فاضل ! • وسرعان ما أدى هذا الخلاف الى صدام خطير بين مصطفى كامل والخديو •

وقد جرت مناسبة الصدام حين اجتمع الخديو بكل من مصطفى كامل ومحمود بك أبو النصر ومحمد فريد فى أغسطس عام ١٩٠٤ فى ديفون Divonne الحمامات بفرنسا ، وتناول الحديث قضية زواج الشيخ على يوسف • فأخذ مصطفى كامل — كما يقول محمد فريد فى مذكراته — « يلوم الخديو بلطف على مداخلته فى هذه القضية ، مينا له أن هذه المداخلة تسيء الى سمعته ، خصوصا وأن الرأى العام كان ساخطا على الشيخ على لزواجه بالبنت رغم ارادة والدها • فقال الخديو : رأى عام ايه يا شيخ ؟ ! • هو فيه حاجة اسمها رأى عام أو أمة ؟ • أنا ان لبست برنيطة ومشيت فى البلد ما أحد يتكلم ! • ثم احتد الخديو وقال لمصطفى كامل أخيرا : أنا ما حبش تنصحنى ! • أنا عارف الواجب على ! • وقام زعلانا • فبقينا نحن • وكان مصطفى كامل فى حالة هياج شديد ، يقول : لابد من قطع علاقاتى مع هذا الرجل » ! •

ثم يقول محمد فريد : « وقد عدنا بعد ذلك مع مصطفى كامل الى مدينة جنيف . فأراد مصطفى أن يكتب للخديو جوابا يقطع علاقاته معه . فمنعناه بكل مشقة . ولكنه صمم على رأيه في نفسه . ولما عاد الى مصر في سبتمبر ، حرر الجواب المشهور ، وأرسله اليه من اسكندرية ، وأرسل صورته الى جريدة الأهرام قبل مقابلتي حتى لا أمنعه » .

على أن سببا آخر حدث بعد هذه المقابلة ، وكان هو القشة التي قصمت ظهر البعير . ففي يوم ٨ سبتمبر كان مصطفى كامل قد اتفق مع الخديو على الحضور الى باريس لزيارة مدام جوليت آدم . واستعدت مدام جوليت آدم بالفعل لاستقبال الخديو ، ودعت عظماء القوم . ولكن في اليوم الموعد أرسل الخديو تلفراقا الى السيدة يعتذر فيها عن الحضور ! .

ويقول مصطفى كامل في خطاب أرسله لشقيقه على فهمى يوم ١٣ سبتمبر ، ان الخديو جاء بعد يومين الى باريس ، ومعه « رفيقته » (عشيقته) ، وهو تحت قدميها ، واني يا أخى قرفت من خدمة هذا الرجل ، وكل الآلام المادية والفكرية التي لحقت بى في هذه السنين نشأت من استيائى من الوجود بجانبه في ذلك الوسط الفاسد ، المختل احساسا وشرفا ووطنية وفضيلة . ولذلك ترانى مصمما قطعيا على الانفصال عنه نهائيا ،

ولو صرت مكبلا في الديون » • ثم يقول مستدركا : « ولكن ليس معنى هذا العزم معاداة الرجل • كلا ، لأن معاداته تعد منى لؤما ودناءة ، وتسبب شماتة الأعداء ومتاعب كثيرة • ولكنى أريد أن أكون مستقلا ، أريد ألا يقال انى أكتب وأخطب بإيعاز من هذا المجنون » ! •

ثم قدم مصطفى كامل النصيحة لشقيقه لمواجهة ما قد يثير الشيخ على يوسف ، صديق الخديو وصاحب المؤيد ، ضده بسبب هذه القطيعة في جريدته ، فقال : « ولو فرضنا وكتب المؤيد أو غيره : ان الخديو غاضب على صاحب اللواء (أى مصطفى كامل) - وهو ما لا أظنه - فلا تكتب الا شيئا واحدا : لماذا ؟ هل خطف صاحب اللواء فتاة في خدرها ؟ هل هدم أركان الفضيلة ؟ هل حارب الاسلام في مشروعاته الحيوية ؟ - ولا تزدد » ! • يريد مصطفى كامل أن يطعن الشيخ على في مسألة زواجه بآبنة السادات رغم ارادة والدها ! •

ويتضح من ذلك جيدا أنه لا صلة بين الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا في ٨ أبريل عام ١٩٠٤ ، وبين قطيعة مصطفى كامل للخديو - كما كتب المؤرخون ! • وكانت الدولتان قد قسمتا ، في هذا الاتفاق الودى ، مناطق النفوذ بينهما ، فاستأثرت فرنسا بمراكش واستأثرت انجلترا بمصر ، وكان لذلك وقع أليم في مصر ، وكان قاطعا في ازالة الأمل في فرنسا •

فقد اعتقد بعض المؤرخين أن الخديو اتجه بعد هذا الوفاق الودى الى التودد الى الانجليز ، مما دفع مصطفى كامل الى اعلان قطع علاقته به ! • مع أن الذى دفع الخديو الى التودد الى الانجليز هو - فى ضوء المعلومات السابقة - انقطاع علاقته بمصطفى كامل ! •

وكان ذكاء مصطفى كامل قد دفعه الى الايحاء بأثر الوفاق الودى ، وبما أحدثه من ظروف جديدة ، فى القطيعة التى أعلنها • فقد أعلن فى كتابه « أن الحالة السياسية الحاضرة تقضى على بأن أكون بعيدا عن فخامتكم ، وأن أتحمل وحدى مسئولية الخطة التى أتبعها نحو الاحتلال والمحتلين ، منعا لتكدير خاطرهم الشريف ، ودفعاً لما عساه يقع من الخلاف والنزاع • وانه ليحلولى أن أبقى الى آخر لحظة من حياتى خادماً لتلك المبادئ الوطنية العالمية ، التى كنتم سموكم أول الداغين اليها والمنادين بها » •

ولم يتردد مصطفى كامل بعد ذلك فى انتقاد الخديو عباس علانية بعد شهر واحد • فعندما أحال الخديو حسن باشا عاصم ، رئيس الديوان ، الى المعاش ، أظهر مصطفى كامل أسفه على حرمان هذا المنصب السامى من رجل اشتهر بالنزاهة والكفاية • وكان يلمح بذلك الى ان الاحالة الى المعاش كانت بسبب رفض حسن عاصم اقرار صفقة أطيان مشتهر التى كانت تهم الخديو ! •

كما انتقد الخديو عباس لوقوفه تحت العلم البريطانى فى حفلة استعراض الجيش الانجليزى بميدان عابدين فى نوفمبر ١٩٠٤ ، ولم يكن يحضرها من قبل .

وهكذا انقطعت الصلة الخاصة بين مصطفى كامل والخديو عباس . وقد كانت هناك أسباب هامة مكنت مصطفى كامل من اتخاذ هذه الخطوة الجسيمة . منها الاستقلال المالى الذى وفرته له جريدة « اللواء » . فقد أصبحت أكثر الصحف المصرية انتشارا . وقد ذكر سلامة موسى ، فى ذكرياته عن القاهرة فى ١٩٠٣ - ١٩٠٧ ، ان الطلاب وغيرهم كانوا يتخاطفون اللواء فور صدورها . وكانت تصدر بعد الظهر مثل معظم الصحف . وكان مقر « اللواء » الأول بالمنزل رقم ١٣ بشارع فهمى بجوار محطة باب اللوق ، ثم انتقل بعد حوالى عامين الى منزل فخم برقم ٢٩ بشارع الدواوين (الذى أصبح شارع نوبار فيما بعد) أمام وزارة الحقانية . وقد عرف « بدار اللواء » وتوفى فيه مصطفى كامل . وقد تحولت « اللواء » لتصبح أغنى الصحف المصرية بعد جريدتى الأهرام والمقطم ! .

أما السبب الثانى من أسباب قوة مصطفى كامل فى مواجهة الخديو ، فهو استناده ، بعد صدور « اللواء » ، الى رأى العام ، وإلى المجموعة الوطنية التى التفت حوله ، مثل أمين الرافعى ، وأحمد حلمى ، وعبد العزيز جاويش ، ومحمد فريد ،

وعلى فهمي ، والتي أخذت تنمو . حتى اذا حان وقت تأليف
الحزب الوطني رسميا في ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ ، رأينا من الأعضاء
شخصيات لها شأن مثل : ويسا واصف ، واسماعيل لبيب ،
ومحمد حافظ رمضان ، وعمر سلطان ، ومحمود أنيس ،
وفؤاد سليم حجازي ، وعلى المنزلاوي ، وغيرهم .

وفي الواقع أن الحظ الوطني الذي اتبعه مصطفى كامل في
« اللواء » هو الذي أبرز زعامته في عين الشعب . فقد أصبح
على احتكاك يومي به ، بعد أن كان نشاطه خارج مصر في أوروبا -
يبعده لحد كبير عن نبض الجماهير . وبعد أن كان يكثر من لوم
الشعب ، حتى كتب الى محمد فريد يوم ١٩ أغسطس ١٨٩٨
يقول : « لا أحد غيرك في المصريين نصيرا يساعدنني على خدمة
الوطن » ثم يقول : « ما على الا الامتثال لارادة الخالق ، الذي
كأنه أراد أن أكون الوحيد في خطتي ، الفرد المطالب
بالاستقلال » ! . فان اقبال الجماهير على « اللواء » والتحامها
« بصاحب اللواء » - كما عرف مصطفى كامل - قد غير من
نظرتي ، ففي خطابه المشهور يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ تحدث عن
« الروح الجديدة التي دبت في الأمة » ، وسخر من « الذين
كانوا لا يرون فينا الا أمواتا تتحرك » ! - أي سخر من نفسه ! .

وبعد أن كتب في ٢٩ أغسطس ١٨٩٥ يقول « دعني بالله
عليك من هذه الأمة التي بلاني الله بأن أكون واحدا من أبنائها -

خطب بعد اثني عشر عاما يقول : « لو لم أولد مصريا ، لوددت أن أكون مصريا » ! •

وقد اعترف مصطفى كامل بخطأ سياسة الاعتماد على فرنسا وأوروبا ، بعد أن ثبت عدم جدواها بعد الاتفاق الودي عام ١٩٠٤ • وقال : « ان العزلة التي صرنا اليها بعثت فينا روحا جديدا ، أرشدنا الى الحقيقة ، التي لا قوام لشعب بدونها ، ولا حياة لأمة بغيرها ، ولا وجود لنفر من الناس اذا لم يتبعوها وهي أن الأمم لا تنهض الا بنفسها ، ولا تسترد استقلالها الا بجهودها » ! •

وهذا الادراك هو الذي صنع في الحقيقة زعامة مصطفى كامل ! • فلا يصنع زعامة الزعماء اعتمادهم على القوى الخارجية والشعوب الأجنبية لتحرير بلادهم ، وانما يصنع هذه الزعامة الاعتماد على شعوبهم والتوافر على توعيتها ، وتربيتها التريسة السياسية ، وتعبئة شعورها الوطني ضد غاصبيها ومحتليها • وهذا ما فعله مصطفى كامل من خلال جريدة « اللواء » ! •

وقد فعله أيضا مصطفى كامل من خلال خطبه الوطنية الحماسية الفريدة ، التي استخدم فيها الجمل الضخمة العاطفية التي تندفع بها الجموع الى الغاية التي يريدها الزعماء دون روية • ولقد كانت نفوس الشباب المصري متعطشة لهذا الأسلوب

الوجداني ، الذي اختفى منذ الثورة العراقية ، لتحيا بالأمل في حياة عزيزة •

ففي خطابه يوم ٢٢ أكتوبر عام ١٩٠٧ ينشد مصطفى كامل قائلا : « بلادى بلادى ، لك حبي وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك دمي ونفسي ، لك عقلى ولسانى ، لك لبي وجناني ، فأنت أنت الحياة ، ولا حياة الا بك يا مصر » ! • ثم يقول :

« يقول الجهلاء والفقراء في الادراك انى متهور فى حبها ! •

وهل يستطيع مصرى أن يتهور فى حب مصر ؟ • انه مهما أحبها فلا يبلغ الدرجة التى يدعو اليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها » ! •

وعندما وقع حادث فاشودة الذى خيب ظن الوطنيين ، أطلق عبارته المأثورة « لا معنى للحياة مع اليأس ، ولا معنى لليأس مع الحياة » • وكان ذلك فى خطابه بالقاهرة يوم ٢٣ ديسمبر ١٨٩٨ •

وقد كان أقوى تأثير لمصطفى كامل بين الفئات المثقفة من بلاده من الطبقة الوسطى ، من الطلبة والموظفين والمحامين وغيرهم من أصحاب المهن الحرة • وقد استطاع أن يخاطب البورجوازية المصرية، الوطنية بلغة المصالح التى تفهمها ، فيقول :

« متى تخلصت التجارة من الشكل الذي يسببه لها الاحتلال الانجليزي ، فستفتح لنا ولكم آفاقا ذهبية • ومتى تخلصت الصناعة من العوائق التي يخلقها لها الانجليز في الجمارك ، فسترقى الصناعة الأهلية وتعود فائدة رقيها على أبناء مصر » ! •

وقد استطاع مصطفى كامل أن ينفذ الى قلوب الفلاحين المصريين بموقفه الرائع من مأساة دنشواي المشهورة ، حين وقع صدام بين الفلاحين وعدد من جنود الاحتلال ، الذين كانوا يصطادون الطيور بينادقهم ، وترتب عليه موت أحد الضباط واصابة آخرين ، ثم عقدت محكمة مخصوصة لمحاكمة المتهمين ، وقضت باعدام أربعة منهم شنقا ، وحكمت على ستة بالاشغال الشاقة لمدة متفاوتة ، وبالسجن سبع سنوات على ستة ، وبالحبس مع التشغيل مدة سنة مع الجلد خمسين جلدة على ثلاثة ، وبالجلد خمسين جلدة على خمسة • وتقذ الحكم بطريقة وحشية في اليوم التالي تصدوره في نفس القرية ، وفي المكان الذي مات فيه الضابط الانجليزي ! •

كان مصطفى كامل في أوروبا حين وقعت المأساة ، ورغم أنه كان ذاهبا للاستشفاء ، إلا أنه هب يؤلب أوروبا على انجلترا. و يعلن أن « يوم ٢٨ يونية ١٩٠٦ سيبقى ذكره في التاريخ شؤما ونعسا ، وهو خليق بأن يذكر في عداد أيام التناهي في الهمجية والوحشية » • ثم يسأل الأمة الانجليزية في بيانه ، الذي أصدره

بعنوان « الى الأمة الانجليزية والعالم المتمددين » عما اذا كان يليق بها أن تترك مثلها في مصر يلجئون ، بعد احتلال دام أربعة وعشرين عاما ، الى وسائل همجية ليحكموا مصر ؟ » .

ثم قصد مصطفى كامل الى لندن يوم ١٤ يولية عام ١٩٠٦ ليرفع صوت مصر في عاصمة الدولة المحتلة ، ويتخذ من الحادثة مرتكزا للمطالبة باستقلال مصر .

وقد عاد مصطفى كامل الى مصر ليعيد علاقته مع الخديو من جديد لمواجهة أخطار الاحتلال ، واستغلال الحادث الوحشي في تعبئة شعور الجماهير ضد الانجليز . ولذلك فقد طلب ، حين كان في أوروبا ، مقابلة الخديو من خلال أحمد شفيق باشا ، رئيس الديوان ، ولكن الخديو رفض . فلما عاد مصطفى الى مصر استطاع بواسطة الدكتور صادق رمضان ، لقناع الخديو بهذه المقابلة ، فتم اجتماع في عزبة الخديو في مسطرد ، حضره مع مصطفى كامل كل من محمد فريد ولطيف سليم باشا والدكتور صادق رمضان ، وتقرر فيه تأسيس الحزب الوطني والنادي وانشاء جريدتين ، احدهما انجليزية باسم «الاجيشان ستاندارد» ، والثانية فرنسية باسم « ليتاندار اجبسيان » - لتنوير الرأي العام الأوروبي في مصر والخارج .

وكان الخديو يرى أن يكون الحزب الوطني حزبا سريا ، ولكن مصطفى كامل وزملاءه أقنعوا الخديو بأن يكون الحزب

علنيا ، ولا بأس فيما بعد من تشكيل لجنة سرية أيضا ! • وقد ساهم الخديو عباس في تأسيس الجريدتين ، كما أوعز الى الكثير من الأغنياء بالدفع • ويقول محمد فريد ان مصطفى كامل اكتب بألف جنيه ! ، « ولكنى لا أدرى ان كان الخديو دفع له مساعدة في هذا المشروع أم لا ، لأنه رحمه الله يخفى كل ما يختص بالمساعدات المالية التى كان يأخذها ، سواء كان من الخديو أو من السلطان عبد الحميد » ! •

وقد كان بسبب مرض كرومر ونقد سياسته في مجلس العموم أن قدم استقالته • ولما جاء خلفه « سير الدون جورست » أوصى حكومته بالافراج عن المحكوم عليهم في دنشواى •

كانت كراهية مصطفى كامل للاحتلال البريطانى لا يضارعها الا حبه لمصر ، ورغبته في استقلالها • وكان الاحتلال في نظر مصطفى كامل هو علة العلل ، وهو أعظم الأسباب لتخلف الأمة وضعفها ، وزوال الاحتلال معناه ازالة العوائق التى تعرقل رقى الأمة وتقدمها في المناحي الاجتماعية والاقتصادية • وقد عبر مصطفى كامل عن ذلك في قوله السالف الذكر « متى تخلصت التجارة من الشلل الذى يسببه لها الاحتلال الانجليزى ، فستفتح لنا ولكم آفاقا ذهبية ، ومتى تخلصت الصناعة من

العوائق التي يخلقها الانجليز في الجمارك لغاياتهم ، فسترقى الصناعة وتعود فائدة ترقيا على أبناء مصر » .

وقد أدت هذه النظرة الى الاحتلال الى تيجتها الطبيعية ، وهى رفض التعامل مع الاحتلال أو الاتفاق مع الانجليز ، والنظر بعين الشك والريبة الى الوطنيين الذين كانوا يتعاملون مع الاحتلال كحقيقة واقعة فى خدمة مصالح بلدهم ، وللتخفيف من أضراره ما أمكن .

ومن أجل ذلك كان مصطفى كامل يتلقى من خصومه السياسيين الهجوم والسخرية ، لأنه فى الوقت الذى يتهم كل من يتصل بالانجليز بالمروق من الوطنية ، كان يلجأ اليهم فى نفس الوقت على صفحات جرائده بطلب الدستور والشكوى من القسوة التى تم بها الحكم والتنفيذ فى قضية دنشواى ! .

وقد كان مفهوم مصطفى كامل لاستقلال مصر متفقا مع الأيديولوجية (أى النظرية) السائدة فى عصره ، وهى أيديولوجية الجامعة الاسلامية . ففى ذلك العصر لم تكن فكرة « القومية المصرية » أو فكرة « القومية العربية » واضحة فى أذهان الناس ، بل كانت فكرة « الجامعة الاسلامية » ، التى ترى فى الاسلام رابطة أقوى من أية رابطة قومية أخرى ، وترى ضرورة تماسك شعوب الامبراطورية العثمانية للدفاع ضد الخطر الاستعماري القادم من أوروبا .

ولهذا السبب كان مصطفى كامل يرى أن بقاء الدولة العثمانية « أمر ضروري للجنس البشرى » ! وأنه من الضروري التفاف المسلمين حول عرش السلطان ، « فملكة الخلافة الإسلامية هي في الحقيقة مملكتنا ، وقبلتنا التي إليها نلجأ ونحوها تنجه » ! •

وفي هذا الضوء نفهم لماذا لم يطالب مصطفى كامل باستقلال مصر ورفع السيادة العثمانية عنها ، لأن استقلال مصر معناه تفتت الدولة العثمانية ، وتفتت الدولة العثمانية لا يفيد سوى الاستعمار الأوروبي ، ويتنافى مع وجوب تقوية الدولة العثمانية حتى تتمكن من صد المد الاستعماري ، بل هو - أكثر من ذلك - يسلم مصر لقمة سائغة للاحتلال ، الذي لم يكن يحول بينه وبين ضم مصر إلى الامبراطورية البريطانية إلا حقوق الدولة العثمانية المكفولة بمعاهدات دولية ! •

ولذلك فقد دعا مصطفى كامل في برنامج حزبه إلى « بذل الجهود لتقوية علائق المحبة والارتباط والتعلق التام بين مصر والدولة العلية » ! • وكان يؤمن بأن انقطاع هذه العلائق يؤدي إلى سقوط مصر في يد الانجليز ! - أو على حد قوله : « ماذا يكون مصير البلاد المصرية لو تنازلت تركيا عن حقوقها لانجلترا ، أو تعاهدت معها على ذلك بمعاهدة شبيهة بالمعاهدة

الفرنسية الانجليزية (يقصد الوفاق الودي) ألا تصير ولاية
انجليزية ؟ » •

وعلى ذلك فان الاستقلال الذى كان يطالب به مصطفى
كامل ، كان هو الاستقلال الذى حددته معاهدة لندن عام ١٨٤٠
والفرمانات السلطانية الصادرة الى خديو مصر - أى الاستقلال
الذاتى فى اطار السيادة العثمانية ! • ولم يكن فى وسعه أن
يطالب بأكثر من ذلك فى ظل الاحتلال البريطانى ، والا أضر
بالمصالح الاسلامية ! •

وكما أن مصطفى كامل لم يستطع أن يتحدى المناخ
الاسلامى وفكرة الجامعة الاسلامية التى تتطلب التمسك بالرابطة
العثمانية ، فكذلك لم يستطيع أن يتحدى المناخ الاجتماعى
وميراث التقاليد الاجتماعية والدينية • لأن مثل هذا التحدى
كان كفيلا بأن يفقده ثقة الجماهير ! • •

ولذلك كان موقفه الاجتماعى رجعيا ! • فقد هاجم
قاسم أمين شهورا طويلة ، لأنه دعا الى عمل المرأة وتحرير
المرأة ! وكان من رأيه أن « حرية المرأة لا محل للحديث عنها
الآن ! ، وعملية التطور الطبيعى تسير سيرها المحتوم » • كما
عارضت جريدته سفور المرأة مهاجمة شديدة •

كذلك وقف مصطفى كامل موقفا محافظا ورجعيا في قضية زواج الشيخ على يوسف من ابنة السيد عبد الخالق السادات كما رأينا . فقد أنكر حق المرأة الرشيد في تزويج نفسها زواجا شرعيا ممن اختارته واختارها ، اذا عارض ولى أمرها ! . وتبنى وجهة النظر التى تقيم مفهوم « الكفاءة الاجتماعية » بين الزوج والزوجة على أساس الأصل والشرف الموروث ! ، وليس على أساس جهد الانسان الشخصى للرقى بنفسه ! - وهى وجهة نظر اقطاعية رجعية .

وفى اطار نظرتة الى الاحتلال باعتباره أكبر خطر يعوق تقدم الأمة ، فقد عمد الى الحفاظ على الوحدة الوطنية والقومية عن طريق الدعوة الى « انهاض الفلاح العزيز واعلاء مكانته ، لأنه ممثل النشاط المصرى ومصدر كل خير ونعيم » . وفى الوقت نفسه عن طريق الدعوة الى وحدة المسلمين والأقباط . ففى خطبته بالاسكندرية يوم ٢٢ أكتوبر عام ١٩٠٧ وقف يقول : « كيف يستطيع رجل وطنى أن يدعو الى الشقاق والبغضاء وهذه الدعوة مناهضة للوطنية الصحيحة ؟ . فالأقباط أخوة لنا فى الوطن ، تجمعنا بهم أشرف رابطة ، وقد عشنا معهم القرون الطوال على أتم وفاق وأكمل اتفاق » .

وكان مصطفى كامل أول من أشرك الأقباط فى الحركة الوطنية ، فقد اصطفى اليه ويصا واصف ومرقص حنا . وكان

وأيضا واصف عضوا منتخبا في اللجنة الادارية الأولى للحزب الوطني ، وقد أعلن مصطفى كامل أن « المسلمين والأقباط شعب واحد ، مرتبط بالوطنية والعادات والاخلاق وأسباب المعاش ، ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد » .

وكان مفهوم مصطفى كامل للحرية يشمل البلاد وشعبها . فكان « جلاء الانجليز » وسيلته لتحرير أرض مصر ، وكان « الدستور » وسيلته لتحرير الشعب المصري . . ففى خطبته بمسرح زيزينيا بالاسكندرية يوم ٢١ مايو ١٩٠٢ ، أكد على ضرورة انشاء مجلس نيابي لمراقبة أعمال الحكومة وتقييد أعمالها ، وكأداة لاصلاح عيوب الحكم . ولكنه كان يرى أن الاستقلال - بالمعنى الذى ذكرناه ، وهو الاستقلال الذاتى فى اطار السيادة العثمانية - هو المدخل الحقيقى للدستور . أو على حد قوله فى خطبته بالاسكندرية يوم ٧ يونية ١٩٠٤ « أن الاستقلال وحده هو الذى يحمى البلاد والممالك من كل بلاء ، ويدفع عنها اعتداء الغير ، ويرقى ملكة الأفراد ، ويهب الشعوب الحرية والحكومة الدستورية ، والسيادة الداخلية والخارجية » . . ومعنى ذلك أنه كان يعتبر الاحتلال مسئولا عن حرمان مصر من الدستور وليس الخديو ! . وهو صحيح .

ومنذ عام ١٩٠٣ أخذت صحة مصطفى كامل تتأثر بهذا النضال الذى لا يهن ولا يهدأ . وقد كتب الى مدام جوليت آدم

في ٢٥ سبتمبر ١٩٠٣ يخبرها بمرضه وبأن الأطباء رأوا من الواجب عليه قضاء معظم ذلك الشهر في « التيرول » للاستشفاء . وكان تعليقه : « لهم الحق في ذلك ، فاني لم أشفق على نفسي » .

وفي ٢٥ يونية ١٩٠٥ كتب اليها خطابا يشكو اليها من أن « العمل قد أضنانني الى حد أشعر معه بسرعة الحاجة الى ترك الوسط الذي أعيش فيه » ! . ثم ألقى هذه العبارة الغريبة : « كأن الطبيعة قد خالفت سنتها ، اذ جعلت قوة روحى أكبر من قوة جسمى » ! .

وكان في أوروبا في صيف عام ١٩٠٦ للاستشفاء ، ولكن حادث دنشواى انتزعه انتزاعا ، فكان من نشاطه ما مر بنا ، وألف الحزب الوطنى بينما كان مرض الدرن يفترس صدره ، وألقى خطبة يوم ٢٧ ديسمبر عام ١٩٠٧ ، المشهورة والمعروفة بخطبة الوداع ، بينما كان يقترب حثيثا من الموت ! . ولذلك عاد بعدها الى غرفته ولم يتركها حتى مات يوم الاثنين ١٠ فبراير عام ١٩٠٨ .

يقول الدكتور محمد حسين هينكل انه كان في عصر ذلك اليوم جالسا مع أحد زملائه طلبة مدرسة الحقوق الخديوية على باب داره ، « عندما جاز الطريق أمامنا رجل ممتط جوادا . فلما كان بازائنا وقف برهة فحيانا ، وقال : أبقي الله حياتكم ،

الباشا توفي ! • وكان زميلي من المتشيعين للحزب الوطنى المتطرفين فى تشيعهم ، فلما سمع قول الناعى سألـه فى لهفة : مصطفى كامل ؟ فأجابه الرجل منطلقا بجواده : نعم ، ولكم طول البقاء ! • وتركنا أنا وصاحبى واجمين من هول الخبر » •

وكان يوم ١١ فبراير يوم حداد فى العاصمة وفى مصر كلها •
نم يشغل الناس شىء فيه غير جنازة الزعيم الذى مات فى شرح الشباب ! • فالمدارس والهيئات الوطنية كلها تفكر فى تنظيم الجنازة ، وأهل الريف يفدون من أطراف البلاد للاشتراك فيها ، والحكومة تعد وسائل الأمن والنظام ، والأجانب الذين رأوا العاصمة جللت بالسواد ، ورأوا أهلها اتشحوا بأسباب الحداد ، كانوا بفكرونا فى العمق الذى تغلغل اليه الروح الوطنى من سويداء نفس هذه الأمة •

فلما سار النعش يحمله على أعناقهم أهل دنشواى ، صمتت كل المدينة ، ولم يبق منها أثر لحياة الا فى مشهد وداع هذا الرجل فى رحلة الأبد ! • لقد كان يوم ١١ فبراير ١٩٠٨ هو اليوم الذى اختلج فيه قلب مصر للمرة الثانية منذ الاحتلال ، أما اليوم الأول فكان يوم تنفيذ حكم دنشواى ! •

وربما كان أحسن وصف لمصطفى كامل هو الذى جاء من رجل ربطته الأقدار به برباط غريب من الود والخصام ،

والتمرد والولاء ، والحب والكراهية ، وهو الخديو عباس حلمي . قال : « كان مصطفى كامل فتى خلع عليه الشباب كل نعمة ، بما فيها نعمة الوهم المقدس ! . وكان قد أثر الحياة الروحية على الحياة المادية . وكان حديث العهد بذلك البلد القديم ، الذي لم تكن هالات المجد ترتفع فيه الا على القبور ! . وكان لا يعرف شيئاً من الوضاعة والمساومات السياسية . وكان مستقيماً . وتحت مظهره اللطيف كانت تكمن روح متفتحة لكل الأحاسيس ، وقلب حساس لكل ألوان الرقة والحنان . وقد زانه الله بالحجى (العقل والفطنة) . وكانت بلاغته واضحة وحارة ، وكان أسلوبه الرشيق العامر بالصور ينتقل من البساطة الانجيلية الى بلاغة الخطيب الممتع العظيم ! . وقد أوتى موهبة الاقناع ، وسحر الاشعاع الذى يؤتاه الحواريون والأنبياء ! . وكان الحب الذى يكنه لوطنه ينبع من حماسة لا تفقده سيطرته على عقله » ! .

تمت

فهرس تفصیلی

الصفحة

٣ « تاريخ المصريين »
٩ تقديم الكتاب
١١ نشأة مصطفى كامل
١٨ لقاء مصطفى كامل بعبد الله النديم
٢٢ مصطفى كامل ودروس الثورة العراقية
٢٣ تولى عباس حلمى العرش
٢٥ نشأة العلاقة بين عباس حلمى ومصطفى كامل
٢٧ احتكاك مصطفى كامل بأوروبا
	استخدام عباس حلمى لمصطفى كامل فى العمل الوطنى
٣١ الوطنى وارساله الى باريس

الصفحة

٣٢	مصطفى كامل ودى لوتكيل فى باريس
٣٩	الخلاف فى القصر حول عودة مصطفى كامل الى مصر
٤٤	نزعة مصطفى كامل الفردية وتطلعه المبكر الى الزعامة ...
٤٦	ازمة مصطفى كامل النفسية وسخطه لأنه ولد مصرياً !
٤٧	قطع عباس حلمى المال عن مصطفى كامل لحمله على العودة الى مصر
٥٢	قرار مصطفى كامل بعدم العودة وطلبه المال من أصدقائه
٥٤	تجمد نشاط مصطفى كامل فى باريس وعودته الى مصر
٥٥	سعى مصطفى كامل لاستئناف علاقاته مع الخديو ...
٥٧	عودة العلاقات بين مصطفى كامل والخديو
٦٠	تأليف « الحزب الوطنى السرى » تحت رئاسة الخديو ...
٦٣	نشاط مصطفى كامل فى أوروبا عام ١٨٩٦
٦٤	طلب مصطفى كامل للتجنيد
٦٥	مصادر تمويل مصطفى كامل

الصفحة

٦٦	موقف مصطفى كامل من حملة مارشان وحادثة فاشودة
٦٩	صدور جريدة « اللواء »
	قضية زواج الشيخ على يوسف واثرها على علاقات
٧١	مصطفى كامل بالخدو
٧٤	الوفاق الودى بين فرنسا وانجلترا عام ١٩٠٤
٧٦	بروز زعامة مصطفى كامل بعد صدور اللواء
٨٠	مصطفى كامل وحادثة دنشواى
٨٩	فلسفة مصطفى كامل السياسية والاجتماعية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٤/١٩٨١

I.S.B.N 977-01-3669-7

تعلم المصريون تاريخ مصطفى كامل من منظور الحزب الوطنى ومؤرخه الكبير عبدالرحمن الرافعى. وهو منظور يصور الزعماء فى هالة من البطولة الفذة المجردة من الأخطاء البشرية. على أنه لما كانت المدرسة التاريخية الحديثة تنظر إلى لبطولة الشعبية فى صورتها الإنسانية. وفى إطار إلتحامها بالشعب صانع البطولات. فمن هنا كانت هذه الدراسة التاريخية عن مصطفى كامل فى محكمة التاريخ.

